PJ Rīyād, Hinrī
7864 al-Tijānī Yūsuf Bashīr
I33Z8

PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

هنري رياض

التجاني يوسف بشير

شاعراً وناثراً

نشر وتوزيع
دار الثقافة
بيروت - لبنان

مكتبة النهضة السودانية - الخرطوم

هنري رياض

التجاني يوسف بشير

شاعراً وناثراً

دار الثقافة
بيروت - لبنان

MAY 10 1967

الفصل الاول

اشراقة

يميل اكثر النقاد الى تقسيم مناهج الشعر لدينا الى اربعة مدارس هى : مدرسة الشعر الصوفى ، ومدرسة الشعر التقليدى ، ومدرسة شعر الوجدان ثم مدرسة الشعر الحديث. ولا شك ان عمومية هذا التقسيم لا تسمح لنا الا بالقول ان اشراقه انما تنتمى الى مدرسة الوجدان وبعبارة اصح الى مدرسة الوجدان الاجتماعى ، دون محاولة للبحث فى تفصيل عن اوجه الاختلاف بين شعراء المدرسة الواحدة .

ويقول النقاد انالموضوعالاول بالنسبة للشعراء الذين قرضوا الشعر منذ عام ١٨٦٠ حتى ١٩١٩ ، كان هو التصوف .

وابرز شعراء تلك الفترة هم ابو القاسم احمد هاشم ومحمد عمر البناء ومحمد احمد هاشم وعبد الغنى السلاوى واحمد الازهرى ومحمد طاهر المجذوب .

وان شعراء المدرسة التقليدية قد اقتفوا اثر الشعرالقديم ، ذى الديباجة الغزلية والدعوة الى الحضارة الاسلامية وشكوى الدهر والسخرية من بعض العادات والتقاليد البالية واشهر هؤلاء عبدالله محمد عمر البناء واحمد محمد صالح ومحمد سعيد العباسى وعبدالله عبدالرحمن وصالح عبد القادروحسيب على حسيب وعثمان بدرى .

أما شعراء الوجدان فهم الجيل الثانى من خريجى كليةغردون والمعاهد المصرية والجامعة الامريكية ببيروت ، مثل يوسف مصطفى التنىومحمد احمد محجوب ومحمد عشرى صديق ،وان

من بين فروع هذه المدرسة ، شعراء المعهد العلمي . مثل الهادى عثمان العمرابى وعبد الوهاب محمد القاضى وشاعرنا التجانى يوسف بشير .

أما المدرسة الحديثة من الشعر ، فلم تظهر الا بعد الحرب العالمية الثانية . وانتشار الافكار الديمقراطية والاشتراكية ، وهى تشتمل على فروع أيضا ، فهناك مدرسة الواقعية الحديثة، وهناك مدرسة الواقعية الاشتراكية ، كما ان ثمة مدرسةللشعر المطلق أو الحر .

وسنفصل فيما بعد رأينا فيما اذا كانت « اشراقة » تعبيرا عن وجداناجتماعى ام ذاتى . والسؤال الان هو : هل تضم اشراقة كل شعر للتجانى ؟

للاجابة على ذلك نقول : ان اشراقة لا تضم كل ما انتجته قريحة التجانى من شعر . اذ انها اشتملت على مختارات من شعره .

وهى منتخبات كان قد خطها فى كراسة ، واحتفظ بها ، وبشر قبل وفاته بنشرها .

ويبدو لنا ان التجانى قد اختار القصائد التى الفها وقت النضوج . دون القصائد التى قالها فى مرحلة الدراسة او المراهقة . وبعبارة اخرى . يخيل الى ان اكثر قصائده تبدو انها انشدت او نشرت ما بين الثانية والعشرين والسابعة والعشرين ، وان القليل منها لربما قيل قبل ذلك .

ولدل مما يؤيد ذلك ، ان الديوان لم يضم ثلاث قصائد نشرت للتجانى عام ١٩٣١ ، على ما نوضحه فى الفصل الثانى ، ولكنه ضم قصيدته فى رثاء محمد ابى بكر عليم فحسب .

واذا اخذنا من الاعتبار . ان التجانى كان طريح الفراش اكثر

شهور عام ١٩٣٧ ، ويبدو انه لم يستطع الا تأليف مرثيته ختام اشراقة « فاحتفظها ذكرى » ، فان اشراقة تعتبر . والحال هذه بنت خمسة اعوام فحسب، ولذلك، فان على من يوجهون النقدكثيرا لاشعارها ، ان يذكروا ان التجاني لم يجد فسحة من العمر لمراجعتها أو لنضوج ملكته الشعرية . وان كانت ـ رغم ذلك ـ اشراقة فى ادبنا الحديث ، فى الواقع من الامر .

وعلى الرغم من اننى لم استطع ان اتحقق من تاريخ كل قصيدة فى الديوان ، الا ان ما اذكره قد يكون باعثا للدارسين للتجانى ، لتكملة ما بدأت .

ففى عام ١٩٣٣ نشرت له قصيدة «تحية» فى (مرآة السودان).

ونشر له فى عام ١٩٣٤ ـ الصوفى المعذب (الرسالة) ـ على قبر حبيب (الفجر ـ ٩) ـ مدامع ومجامر ـ كذلك الحب .

ونشر له عام ١٩٣٦ بمجلة ام درمان : ـ دنياى والنائم المسحور والقمر المجنون واللمحة الخالدة .

وقصيدته « فاحتفظها ذكرى » كانت عام ١٩٣٧ بطبيعة الحال، كما يغلب على الظن ان قصيدته «ثقافة مصر» انشدت عام ١٩٣٥ وان قصيدته « المعهد العلمى » كانت عام ١٩٣٣ اى السنة التى فصل فيها من المعهد .

ولعل مما حدا به الى ذلك أيضا ، اعتزازه بشعره واعتقاده بأنه رائد من رواد الشعر الحديث فى السودان .

والقارىء لاول قصائده « قطرات » ، يدرك فى يسر مدى افتخاره بشعره وتهليله وتصفيقه له وحفاوته به . وخاصة قوله :

قطرات الندى رقراقة ... يعشق البشر دونها والطلاقه
فهى رفعة من عالم كله قلب ... خلوق ولوعة رقاقه

عالم الحسن والجمال ودنيا الحب والقلب وجده واشتياقه
يتحدرن من « مناجع » أيا مى ومهوى مدامعى المرقراقه
ويرجعن من « مناتن » دنيا ى صدى يزحم الهوى ابواقه
من دمى يستدرها حر انفاسى لهيبا .. اسميته اشراقه

ولا أدل على ذلك أيضا من قوله فى قصيدته « الادب الضائع » :

أنا ان مت فالتمسنى فى شعـ رى تجدنى مدثرا برقاعه
فى يمينى يراع نابغة النغم حى وكل امرىء رهين يراعه
وعلى هامتى اكاليل « سحبا ن وفى سترتى اداة مصياعه
رحمة للاديب ادركه اليـا س وهام الاديب بين قلاعه
ما عسى ينفع البيان وماذا كان يجنى الاديب من اوجاعه؟
يا أديبا مضيعا من بنى الدنيا بحسب الاديب محض انتجاعه
انت يا رائد القريض وما أد ت بسقط الورى ولا من رعاعه
انت قيثارة الجديد بك استط هر من فى الوجود سر متاعه
ادب ملؤه الحياة وشعـر منغم بالسمو فى اوضاعه
ضاع: ويح الذى يغار على الـ شعر وويح الاديب يوم ضياعه

ولقد عقب الاستاذ عز الدين الامين . على ذلك . فى كتابه « مسائل فى النقد » (ص ٥٥) بقوله : « والحق ان شعر التجانى شعر سام .. ولقد نادى التجانى بجانب دعوته لسمو الادب . نادى برأيه فى هذه القضية التى يتنازعها النقاد من حين الى حين . تلك هى قضية الادب والحياة . ادب ملؤه الحياة وشعر منغم بالسمو فى اوضاعه .

« وسيظل بيته هذا من غير شك بيتا خالدا . وتوجيها سديدا للادباء والنقاد . ثم انا نجده يدعو قبل ذلك للتجديد فى الشعر . ويعيب الشعر التقليدى . لانه شعر لا يجارى الحياة ولا يتجدد بتجددها .. ثم ان مرمى التجانى على حرية الادب سيظل كذلك

أصلا ثابتا من اصول النقد الادبى .. »

ويقول ايضا مزهوا بنفسه مفتخرا فى قصيدته « وحى المحامد»:

نحن نشكو اليك عصرا تباهى (باقل) بيننا على سحبانه
لست ارمى على عواهنه القو ل ولست الحصور فى تبيانه
لى من الشعر كفة لم تشل قط وغيرى الشؤول فى ميزانه
انا ان عشت قد ضفرت لكم غارا كغار الرشيد فى بغدانه
لم تتوج به قياصرة الرومان فيما انتثيت من الوانه
ليكاد اليراع يهتز من شو ق فيملى على وحى جنانه
ان قدسا يفيض منك حريا ان يبث الحياة بين كيانه

ونضلا عن ذلك ، فان الشاعر الشاب ، قد جرؤ على نصح الشباب امثاله على العمل على توسيع افق مداركهم بقراءة الادب القديم والحديث . اذ قال فى قصيدته « تحية » بمناسبة اصدار الاستاذ سليمان كشه مجلة « مرآة السودان » . آخر عام ١٩٢٣ . فقال :

قل للشباب وحى فيه نشاط ه الادبى واستنهض قوى كتابه
وانصح الى بعض الشباب وقل لهم عنى وبينهم كثير مشابه
حسن قيام الشعب واشرئبابه والوثبة الاولى وطغر شبابه
فتعلموا سحر البيان يلن لكم ما اعتاص من رتج القريض وبابه

ومما يدل على اعتزازه أيضا . قوله فى قصيدته « ثقافة مصر »:

عادنى اليوم من حديثك يا مصر رؤى وطوفت بى ذكرى
كلما انكروا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعا وفكرا

ويخيل الى ان التجانى لم يلجأ الى الاشادة بشعره ، الا لانه استشعر بان بعض الادباء قد طفقوا يقللون من شان شعره . بل اتهموه بالغموض والغرابة من الالفاظ اللغوية . كما استشعر

بمناسبة حادة بينه وبين زميله وابن عمه عبد الوهاب محمد القاضي من ناحية وبينه وبين شعراء خريجي كلية غردون من ناحية اخرى ، مثل يوسف مصطفى التنى ومحمد احمد محجوب ومحمد عثمان محجوب وحسن طه .

وذلك فضلا عن ان فصله من المعهد ، جعله يحس بضرورة تقديم دليل على تفوقه نتيجة جهده ودراسته الخاصة .

ولقد توفى التجانى فى اغسطس عام ١٩٣٧ ولم تر « اشراقة » النور ، اذ لم يستطع طبعها قبل وفاته .

وحدثنى الاستاذ المبارك ابراهيم ، صديق الشاعر ، انه هو الذى حمل ديوان « اشراقة » مخطوطا الى القاهرة ، بقصد طبعه ، واستطاع ان ينشر بعض قصائده فى مجلة « الرسالة » .

وانه سلم الشاعر ابراهيم ناجى ، الكراسة المخطوطة ،للاطلاع عليها ، ولكنه احتفظ بها فترة طويلة ، اذ اعجب باشعارها .

وكان ناجى يقرضها لاصدقائه الشعراء ، فلا يردونها الا بعد لأى ، ولذلك ، ظل الديوان طى النسيان أو كاد سنوات كثيرة ، حتى ظهر للوجود لاول مرة عام ١٩٤٢ ، على ما ذكر لى ذلك ، صديقى خليفة عطية ، مدير مكتبة النهضة السودانية بالخرطوم، والذى تأكد من صحة ما رواه لى ، لدى مقابلته لوالد التجانى الشيخ يوسف بشير فى مايو عام ١٩٦٦ .

ولقد طبع الديوان على نفقة الاستاذ على البربر بمعاونة او مساهمة من محمد محمود جلال ، الذى قدم الطبعة الاولى .

ويغلب على الظن ان الطبعة الاولى لم تكن تجاوز الفى نسخة ، وزع اكثرها بمصر ، ووزع القليل منها بالسودان ، دون ان يكون لها صدى كبير فى اوساط المثقفين .

واعاد طبع الديوان للمرة الثانية ، الاستاذ المرحوم عبدالله

مرغني ، حوالى عام ١٩٤٧ .

وعندما نفدت الطبعة الثانية ، أقدم الاستاذ الامين على ، الذى كان يمتلك « المكتبة الجديدة » بامدرمان ، على نشر الديوان على نفقته الخاصة ، بمطبعة التمدن ، عام ١٩٥٥ ، ثم قام والد التجانى بالاتفاق مع صاحب تلك المطبعة ، الحاج ابو زيد خليفة، على طبع الديوان طبعة رابعة عام ١٩٦٤ .

وكانت نسخ الطبعة الثانية خمسة الاف تقريبا ، ونسخ كل من الطبعتين الثالثة والرابعة ، ثلاثة آلاف نسخة ، على ما يذكر صاحب المطبعة .

وعلى هذا ، يكاد ديوان التجانى يحظى بقصب السبق ، لا من ناحية توزيعه فحسب ، بل من ناحية تكرار نشره ، اذ ان اكثر الدواوين المعاصرة ، لم تحظ بغير النشر للمرة الاولى او الثانية، ولكن لم يطبع ديوان منها للمرة الرابعة حتى الآن .

يخلص مما تقدم ، ان ولادة « اشراقة » ، كانت عسيرة الى حد بعيد ، وان سمى عليها مئات من فتيات هذاالجيل ، اللائى خرجن فى يسر الى هذا العالم الكبير ، ورغم ذلك ، فان كثيرا من شعراء السودان ، يحتفظون بدواوينهم مخطوطة ، ويحول دون نشرها ضيق ذات اليد ، لا ضنهم بالادب على شعبهم .

وليست ازمة النشر قاصرة على الشعر فحسب ، بل هى أقسى فى مجال النشر .

لذلك ، فانه يتوجب على المثقفين فى بلادنا ان يعملوا على نشر التراث الاول من نثر او شعر ، فضلا عن نشر الانتاج الحديث.

ولقد حظى شعر التجانى بتقدير كبير ، اذ كان ولا يزال موضع الدراسة فى السودان وفى البلاد العربية أيضا .

وسنتعرض فيما بعد لاشهر تلك الدراسات .

ولقد أقامت لجنة التأليف والترجمة فى ١٤ ـ ٥ ـ ١٩٤٦ بنقابة الصحفيين بالقاهرة . مهرجانا له . والقيت فيه محاضرات قيمة عنه من كل من الاساتذة عثمان امين ومظهر سعيدوابراهيم ناجى . راحمد علوش .

وقد اشتملت الطبعات الاخيرة من الديوان على بعض تلك الابحاث ، وفى عام ١٩٦٢ قام لفيف من الادباء بتقديم دراسات عنه بمناسبة مهرجان اقيم لمرور خمسة وعشرين عاما على وفاته، ونشرت فى كتاب « دراسات فى شعر التجانى » .

وقبل ذلك التاريخ ، كتب الاستاذ عز الدين الامين مقالا « بالايام » دعا فيه الى اقامة مهرجان للاحتفال بذكرى مرور عشرين عاما على وفاة التجانى . وانى انشاء مجلس اعلى لرعاية الفنون والاداب . ورد فيه :

(والتجانى شاعر فذ بين شعراء السودان.. فهو رائد التجديد الشعرى بين شعرائه . ولكم مجدوه فى العالم العربى ...

ان كل ذلك من شأنه ان يدفعنا للاحتفال بالتجانى . وان يجسم لنا تقصيرنا فى حقه. فقد احتفل به سوانا ، ونحن ما زلنا غير عابئين بذلك . كما ان غيرنا ما زال يضرب لنا الامثال بالاشادة بالنوابغ ... فمتى نعنى بنوابغنا هكذا ؟ ومتى تحظى الفنون والآداب عندنا بمثل هذه الرعاية والتقدير ، فننشىء لها مجلسا . ونهبه المال والسلفات) .

أما عن فن الشعر فى اشراقة . فيقول عنه الدكتور عابدين فى كتابه « التجانى شاعر الجمال» . ملخصا آراءه فى هذا الموضوع: (وبعد ، فقد رأينا التجانى فى معظم شعره يسلك سبيل الشعراء المجددين ، فيراعى فى قصيدته التناسق :

١ ـ من الموضوع : فيبنى قصيدته على اساس معين بناء

متماسك الاجزاء . فلا تهافت بين المعنى والمعنى .

٣ ـ وفى الموسيقى : اذ يتوخى الشاعر التناسق بين تهافتا بين احساس واحساس .

٣ ـ وفى الموسيقى : اذ يتعرض الشاعر التناسق بين الموسيقى الخارجية والداخلية وبين المعانى والمشاعر التى يعبر عنها .)

اما من ناحية اسلوب التجانى فى الشعر . فيرى الدكتور عابدين. انه « يكثر من تجسيم المعانى الى حد الاسراف احيانا . والتعقيد احيانا ... » وانه يميل الى «الربط بين الصور والمدركات الحسية»، وكرر كثيرا فى معرض ابحاث الكتاب المختلفة . ان التجانى « شاعر صادق » . وبعبارة اخرى ان اسلوبه الشعرى يمتاز بالصدق .

ولانجد مبالغة فى قوله : (التجانى فى اكثر شعره صادق الشعور ، احس احساسا عميقا وسرد للناس تفاصيل احساسه).

ولكن رغم ان شعر التجانى يمثل مشاعره وعواطفه وآلامه وآماله واحزانه وافراحه ورغبته فى الحياة وخشيته من الموت، أى يمثل ذاته ، الا انه انطوى على تعبير عن مشاكل الجماعة السودانية بأسرها . وعن ثورة الشباب على الاوضاع السائدة والتقاليد البالية . والافكار الرجعية ، بل ان المثالية والصوفية والحدسية التى كانت تتجلى فى بعض قصائده ، كانت بدورها تعبيرا عن أمله فى الوصول الى مجتمع ، يجد فيه الانسان الجانب المادى من الحياة ، مثل الاكل والملبس والمشرب والمسكن . ميسورا موفورا ، حتى يمكن ان يشبع الجوانب النفسية او الروحية لديه .

واذا كان فى اشراقة جانب ذاتى وجانب اجتماعى . فاننا نرى

ان نشر التجاني يدل دلالة قاطعة على وجدان اجتماعي ، على ما سنوضحه في فصل قادم .

واذا كان يصعب الحكم على الشاعر من قراءة قصيدة واحدة له او عدة قصائد ، بل قد لا يكون الحكم سليما الا بقراءة ديوانه او دواوينه ، فاننا نرى ان دراسة التجاني بالنظر الى نشره مثل شعره ، قد تفيد في هذاالمضمار . وهو ما نأمل ان ننهض به في هذاالكتاب .

الفصل الثانى

اضواء على اشراقة

ذكرنا فيما سبق ان « اشراقه » لم تضم كل قصائد التجانى.

ولقد اجمع كثير من اصدقائه على ان له قصائد لم تنشر فى الديوان . مما حدا بى الى البحث عنها او عن بعضها . على الاقل.

وهذه احدى القصائد التى لم تنشر بالديوان ، ولكن سبق للتجانى ان نشرها بجريدة « ملتقى النهرين » ـ (العدد ١٦٤ ـ ٢٦ ـ ٤ ـ ١٩٣١) ، بعنوان « بين الوصل والفراق » :

هى انت من اهوى وقاتلتى التى
خنت الوفاء وعز منك مزار
بالامس وقعت الحمائم بيننا
نغم الهوى وشدت لنا الاطيار
ومرت مياه الحب فيما بيننا
واليوم هجرك والضنى سيار
جبات عدن انت ساعة نلتقى
ولظى السعير نواك حين بدار
ولقد يقربك الخيال فأنثنى
لاضمه واذا به خطار
واذا به هو أنت ساعة قربت
تحت الخمائل بيننا الاقدار

وتعيدك الذكـرى ومـا من وامـق
الا ويورثـه الضنـى التذكـار
ان كان سحرك في جفونـك قابعـا
فسـواك جـاد عذابـه المـدرار
سواك مـات بـه وغـيرك مصطـل
بـاواره ولمـن عـداك اوار
هـذا فـؤادى فانظـرى تـامورة
تبدو لعينـك دونـه الاثـار
سبحانـك اللهـم كم من مقلـة
للسحـر فيهـا منـزل وقـرار
سبحانـك اللهـم كـم مـن وجنـة
يسـرى شعاعـك فوقها فتنـار
تزهو عـلى ورد الربـى وكأنمـا
نبتـت بغرسك فوقهـا الازهـار

ولقد ذكر الاستاذحسن نجيله فى مقاله « التجانى كما عرفته » الذى نشر فى كتاب « دراسات فى شعر التجـانى » انه لم يعثر على قصيدة التجانى ومطلعها :

لـم لا يغذينـا الهـوى بلبانـه
انـا فى الشباب وانت فى ريعانـه

وذكر نجيله انه افتقد ايضا قصيدة التجانى فى رثاء ابى القاسم الشابى . ولم اعثر على القصيدة الاخيرة . ولكن التجانى قد نشر القصيدة الاولى بمجلة « ملتقى النهرين » . فى العدد ١٨٣ الصادر بتاريخ ١٣ـ٩ـ١٩٣١ . بعنوان « وحى الحب » . وها هى القصيدة :

لم لا يغذينا الهوى بلبانه ؟
انا فى الشباب وانت فى ريعانه !
قم فاسقنى خمر الهوى وسلافه
واشرب بكأسى من رحيق دنانه
يا بن البلابل رددت الحانها
واخا الهزار يجد فى تحنانه
غرد تجد اذنا صغت ومشاعرا
اذنت وقلبا عاد من خفقانه
وتغن يا بن الصادحات من الجوى
والنازلات على معاطف بانه
هذا الهوى واولاء نمن بروضه
افلا نغرد فى ذرى افنانه
خذ من شفاهك كل ما انا آخذ
تجد السلاف يهز ساقى حانه
يا من سلبت من الأياة شعاعها
وأخذت زهر الورد من فينانه
دار الخيال وقف حولك ساعة
ودنى وابعد وهو فى دورانه
فرآك تفضله مدى وتدفقا
ورآك ملء الكون فى وجدانه
سكن هواى بقبلة فياضة
بارق ما اهتز الورى لبيانه
ولتدر من أنا ؟ من اكون من الورى ؟
أنا من تلقى القول من سحبانه !
ان شاء البسك المشاعر حلية
ونضى الدمقس عليك من تبيانه

قم ضع يمينك فى هـــواه مباركـا
وامسح بها ما شئت من جثمانـــه

ولما كانت القصيدة المذكورة لم توقع بامضاء « التجانى » ، وان قصيدة « الروح » ، قد نشرت فى نفس العدد بجوارها ، دون توقيع ايضا ، بدا لى ان التجانى هو صاحبها ، وخاصة انها تماثل قصائده التى تتردد بين الشك والايمان ، بل يخيل الى انها البذرة الاولى لقصائده الاخرى ، مثل « ودعت امس يقينى » و« يؤلمنى شكى » و « الصوفى المعذب » و « طفل » ، وها هـى أبيات قصيدته « الروح » :

الروح ما الروح الا طـــائر غـرد
لـه جنـــاحان من نور وظلمـــــاء
كطـــائر الروض الا انـــه بـــدا
يشدو هنالـــك شدو الحائر النائى
يظـــل يهبـــط ذاو لمؤتلـــق
وقـــد يغـــادر خضراء لخضـراء
لا العقل يهتك ما اخفـاه من حجـب
وعـين كل بصير جـــد عميـــاء
« الله » والروح كـم نسعى وراءهما
ونستعـــين بأمـوات وأحيـــاء
همـــا الخفيـان فى نور وفى غسق
ترفعـا عـــن اشارات وايمـــاء
سران بـا نقب الانسان دونهمـــا
الا توغـل فى شـــك واعيـــاء
الويل للعقـل هـــذا مشكل جلـل
فكيـف ينظر فى عجـز وابضـاء ؟

لـــه الثبور ومـــاذا عافـــه فمضى
يقلب الطرف فى ذعـــر ورعنـــاء
لو ينزل العقـــل قبل الروح فى جسد
لم يلبث الروح سرا بـــين احشاء !
تكشفت رسل الآراء عـــن شيـــع
شتى وعـــن فـــرق كثـــر وآراء
فليت شعرى والانســـان منصرم
أفـــى الخلود نصيب « للوريقاء »
يا أيهـــا الـــروح كم تدنـــو بمقربة
وانـــت أبعد مـــن يـــوح وعلـــواء
جرى وراءك « سقراط » فمـــا علقت
كفاه منك بشيء وابن سينـــاء
لانت صعب على عقـــل الالى نزلوا
من ظهـــر آدم او جـــاءوا بحـــواء

يخلص ممـــا تقـــدم ان « اشراقـــة » . لـــم تتضمن الا بعـــض قصائد التجاني ، الامر الـــذى يستدعى بذل مزيد من الجهد لجمع باقى قصائده ، اذ انها جزء من تراث الشاعر ، يتوجب دراسته مثلما تدرس قصائده الاخرى المعروفة ، كما يتوجب جمع نثره ونشره ودراسته أيضا ، لان كلا من شعره ونثره مرآة لادبنا فى مرحلة هامة من مراحل تطورنا الفكرى والسياسى.

الفصل الثالث

نشأته وثقافته وصفاته

اولا : مولده :

ولد احمد التجانى بن يوسف بن بشير الكتيابى ، عام ١٩١٠ بحى الركابية بام درمان . بمنزل كائن بالقرب من شارع كررى . ويجاور حى المسالمة .

ولقبه ابوه بالتجانى . تيمنا بالتجانى صاحب احدى الطرق الصوفية المعروفة فى السودان .

وينحدر والد التجانى من « الكتياب » وهو احد فروع قبيلة الجعليين .

وانحدر من صلب والده ثمانية اولاد ، كان احمد التجانى هو الثالث بعد بنتين . ثم رزق والده بولدين اصغر منه ، احدهما يدعى محمد ، والآخر محمد على . كما رزق بثلاث بنات أخريات .

ولا تزال اسرة التجانى تعيش فى نفس البيت الذى ولدفيه.

ولا تتصف طفولة التجانى بمميزات خاصة ، اذ قضى ـ فيما يبدو ـ طفولة عادية .

ولما ان بلغ اشده ولربما كان ذلك فى العاشرة من عمره تقريبا ، الحق بالخلوة ، ومن ثمة بدأ يرتشف من منهل العلم الدروس الاولى فى المعرفة .

ولم يذكر لنا التجانى انه كان مغرما بلعب كرة « الشراب »

او « البلى » ، ولكنه وصف لنا ذكرياته عندما تهطل الامطار ، وتبلل الارض ويفترش الصبيـة التراب ، لكى يبنوا منه بيوتا ومن الطين جمالا وعرائس . كيف لا والطين يفرح فى يدى التجانى :

يفرح الطين فى يدى فالهو جاهدا اهدم الحياة وابنى.

ولما دخل التجانى الخلوة أصبحت الخلوة معبدا له يقضى فيها جل وقته .

ثانيا : فى الخلوة :

التحق التجانى بخلوة عمه الشيخ عبد الوهاب القاضى الكتيابى ، وتلقى فيها دروسه الاولى فى القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن . حتى « حصل » .

ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان كل من درس فى الخلوة او الكتاب، يجد فى قصيدته « الخلوة » مرآة لنفسه فى ايام دراسته الاولى. وها هى قصيدته :

هب من نومه يدغـدغ عينيه مشيحا بوجهه فـى الصبـاح
ساخطا يلعن السماء وما فى الارض من عالم ومـــن اشبـــاح
حنقت نفسه وضاقت به الحيـ ـلة واهتاجـه بغيض الرواح
وأهابت به الظلال وقـد نشـ ـدن فى جلوة القرى والبطـاح
طوفت فى خيالـه ذكريات الر وع واعتاده مطيف الجمـــاح
ومشى بارمـا يدفـع رجليـ ـه ويبكى بقلبه الملتـــــاح
ضمنت ثوبه الـدواة وروت رأسه من عبـيرها الفيـــاح
ثورة صـورة خوافى مـا بيـ ـن حنايـا صبينا من ريـاح
ورمى نظرة الى شيخه الجبـا ـر مستبطنا خفـــى المناحـى
نظـرة فسرت منـازع عينيه وتمـت عمـــا به من جراح
حبذا « خلوة » الصبى ومرحى بالصبا الغض من ليال وضاح

رب يوم أغر يزهـو بدرى نطاق وعبقـــرى وشـــاح
وظلال من الضحى ظفرت منـ ها بعقد من الصبـــا لمـاح
زهرات شتى منوعـة الالوان من سوسن الربى والاقاحى
متعت شمسها فعاودها الـف هوى يستقيدها للمـــراح
ونفوس سجى الكرى من حوا شيها ودب الفتور فى الارواح
فارجحنت مهومـــات ومـــا تبرح مركوزة على (الالواح)
كلما لفها النعـاس وأضفى فوقهـــا عالمـا ندى الجنـاح
قصف الرعد فى المكان ودوى مرزما صاخبـا قوى الصيـاح
فاستفاقت وهيمنت بعض اشـ ياء وعادت وعاد قصف الرياح
صور للصبا الاغـر موشـا ة باحلامـه وضوء الصبـاح
يدفق البشر من مفاتن دنيـا ها وتفتر عن سنـا وضـاح

ولا ريب ان القارىء ليس فى حاجة الى من يعين له مواضع الانفعالا تالانسانية الكثيرة الساحرة الساخرة فى هذهالقصيدة، ولذلك لعله يكفى ان نذكر انالتجانى كان صادقا فى تصويره لمشاعره الذاتية ، لما ذكر انه عندما يصحو « يدغدغ عينيه » . وانه كان يسخط و يحنق حتى اذا لم يجد بدا من الذهاب الى الخلوة ، داهمته ذكراهاالاليمة ، ثم مشى « يدفع رجليه » بارما. مستنشقا عبير المحبرة التى اندلقت على جلبابه .

ولما يصل ثائرا الى الخلوة ، كانيتلصص النظر الى الفكى « شيخه الجبار » ، ونفسه منطوية على الحزن والاسى ، ولكن رغم كل ذلك . فقد كانت الخلوة بالنسبة له رمز الطفولـــة والبراءة والمرح .

ذلك ان الصبى كان يقرأ مهتزا الى الامام والى الخلف ، حتى يدب « الفتور فى الارواح » . ويضرب الرأس اللوح مرارا وتكرارا وحتى « لفها النعاس » . ولكن كيف يتسنى للطالب

النوم ، وصوت الفكى يدوى مثل « قصف الرعد » او « قصف الرياح » !

ونكمل بعض ابيات من قصيدته « ثورة » صورة الطفولة فى السودان ، تلك التى يقول فيها :

يفرح الطين فى يدى فالهـــو ... جاهـدا أهدم الحياة وأبنـى
كم أشيد الحصا قصورا وكم ... اكبر من شأنها واقدر شأنى
وطنى فى الصبى الدمى والتما ... ثيل ونفسى ومن أحب وخدنى
قل لهذا الصبى : ماذا يكفيك ... اذا لم تكن الاعيـب جـــن ؟
هذه يا أبى تصاوير مـــا تبـ ... ـرح دنياى أو تزايـــل كونى
يصنع الغاب مزهرى ويشيد الر ... مل عرشى ويبعث اللهو أمنى
تلك عرسى وانها من صنع نفسى ... بيدى صنعتها .. وذيالك ابنى!
هى دنيا الصبا لاجنة الشيخ ... تفيض النعيـم من كل لـون

ولقد عقب على ذلك الاستاذ عبدالله الشيخ البشير بقوله :

(ما قرأت قطعة شعرية تصور دنيا الطفولة كهذه القطعة من حيث صدق التصوير وسهولة ادائه وزفرة الحياة والحركة فيها حتى لأكاد اشتم منها رائحة الطفولة بل أكاد اشعر انى عدت صبيا وانى ذاك ؟) .

وعلى هذا . لم يكن التجانى وحده يميل الى ذكريات الطفولة، اذ ان الانسان بطبعه يميل الى البراءة والبساطة .

ثالثا : فى المعهد العلمى :

بعد الانتهاء من الخلوة ، التحـــق التجـانى بالمعهد العلمى بامدرمان . ولذلك فانه نهل من العلوم الادبية وحدها ، من فقه ونحو وتوحيد وبلاغة وأدب ، ولكنه لم يحظ بدراسة العلـوم الحديثة . مثل الرياضة والجغرافيا والتاريخ وعلوم الطبيعة والكيمياء والاحياء ، التى لم تتضمنها مقررات المعهد العلمى الا

فى السنوات الاخيرة ، ومنذ عام ١٩٥٦ تقريبا .

ومهما قيل من تقريظ فى دراسة تلك العلوم الخمسة التى تلقاها التجانى ، الا ان مثل تلك الدراسة وحدها لم تكن تكفى لكى تجعل تفكيره علميا او عصريا .

ولذلك ، انحصر تفكير التجانى على دائرة الآداب وحدها ، ولعله خال ـ كغيره من معاصريه ـ ان دراسة الادب هى طريق الثقافة الوحيد ، ومن ثمة : لم يطلع التجانى على علوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع .

وليس السبب فى ذلك ، عدم تدريس المعهد لتلك العلوم ، ذلك لانه كان يقرأ كثيرا من الكتب غير المقررة عليه . ولكن السبب يرجع الى ان المجتمع الذى كان يعيش فيه ، قد مال الى الادب ميلا كبيرا ، باكثر من ميله للسياسة ، ولان الاستعمار لم يكن يسمح بنشر الثقافة الحديثة فى ارجاء السودان . ولان الصحافة كانت تخشى التطرق الى المواضيع السياسية والمواضيع التى كانت تشغل اذهان الناس فى العالم الكبير او الصراحة فى مواجهة الاستعمار .

وهذا ، على عكس ما نلاحظه بعد عام ١٩٣٦ ، وخاصة ابان الحرب العالمية الثانية ، اذ بدأ طلابنا وشبابنا فى استيعاب النظريات الاقتصادية والسياسية المختلفة ، بوجه عام ، وفى دراسة النظرية الاشتراكية ، بوجه خاص ، ومطالعة المقالات التى تزدحم بها الجرائد ، والتى كانت ولا تزال تدعو الى تغيير معالم حياتنا تغييرا جذريا ، والمطالبة بتحقيق الاشتراكية والديمقراطية فى بلادنا ، وتخطيط اقتصادنا تخطيطا اشتراكيا ، يكفل حياة افضل وارغد .

ولكن اذا كان من المسلم به ، ان الافكار الديمقراطية

والاشتراكية ، لم تنتشر الا بعـــد الحرب العالمية الثانية ، فى السودان ، والا بعد الاستقلال بصفة خاصة ، فانه لمن العسف، والحال هذه ، ان نطالب التجانى بوضوح الرؤية فيما يتعلق بتلك الافكار ، اذ ينبغى علينا ان نحلـل اشعاره على ضـوء الثقافة الادبية ، التى كانت سائدة قبل عام ١٩٣٦ .

ومهما يكن من أمر ، فقد تفتقت ملكة التجانى الشعرية ، وهو لم يزل طالبا بالمعهد ، اذ نظم بعض القصائد ، وتبارى فى النظم مع زملائه ، ومطارحة الشعر ايضا ، وخاصة مع محمد عبـد القادر كرف والمرحوم الهادى عثمان العمرابى والمرحوم محمد عبد الوهاب القاضى .

وحدثنى كرف صديق التجانى بأن التجانى بدأ فى قرض الشعر ، وهو لم يزل فى السنة الثالثة ، وانهما كانا على رأس «جمعية الثقافة» ، التى كونها الطلاب ، وخاصة اولئك الذين كانوا من ابناء العاصمة المثلثة .

وكان التجانى يجد مجالا لانشاد محاولاته فى الشعر ، فى تلك الجمعية ، مما كان له أثر فعال فى صقل ملكته الشعرية .

وكان من اقرب اساتذته اليه ، الاستاذ حسين منصور ، مدرس الادب العربى ، لان التجانى قد اعتاد التردد عليه كثيرا ، سواء فى منزله او مجالسه او ندواته .

وحدثنى استاذنا محمد عبدالله العمرابى ، صديق الاستاذ حسين منصور ، انه لطالما وجد التجانى فى بيت صديقه ، عارضا عليه محاولاته الشعرية الاولى ، بقصد تنقيحها أو وزنها ، وان صلة التجانى باستاذه لم تقتصر على المنزل فحسب ، بل امتدت للمقابلة فى اى مجلس او ناد كان يرتاده .

وكـان ينضم الى مجلس العمرابى وحسين منصور ، ابراهيم

يوسف سليمان وخضر حمد ، ومحمد عثمان عبد القادر والمغفور لهما الطيب السراج وعبدالله عبد الرحمن .

وكان التجاني وزميله المرحوم الهادى عثمان العمرابي يجلسان صامتين مصغيين لكل مايدور بين الاساتذة الكبار من حديث فى الادب واللغة .

وذكر لى استاذنا العمرابى . بأنه لا يزال يذكر يوم ان سأله صديقه حسين منصور عن ديوان حسان ، فقرظه له ، ثم سأله ان كان يحفظ له مدحا للنساء بالعفة ومكارم الاخلاق ، فاجاب بانه هو قوله فى السيدة عائشة بنت ابى بكر الصديق رضى الله عنها :

حصان رزان ما تهيم بريبة
وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

ولما سمع التجاني ذلك ، قال ان حسان ليس من شعراء الطبقة الاولى ، بل طفق يقلل من شأن شعره .

وتجادل الاثنان . وانفض المجلس دون ان يقتنع احدهما بوجهة نظر الآخر .

ويشير التجاني الى حضوره لندوات ومجالس استاذه ، معترفا بفضله عليه ، فى قصيدته « ملاحن فيها الهوى والالم » ، التى ارسلها له ، بعد ان رحل الى مصر . وقد انطوت على وداع التلميذ لاستاذه ، وحسرته على عدم تمكنه من اللحاق به ، كما انطوت على الاشادة بالمواقف المشرفة . التى وقفها حسين منصور فى مواجهة الاستعمار حتى اضطر الى تقديم استقالته من المعهد ، والتى قال التجانى فيها :

وداعا مزار الربى والاكم أريش الجناح وسيق القدم
أسترجع أنا بعد الشباب سنى الصبا وادكار الذمم

أفضت من الحجر فيمن أفاض ... وزايلت مهدى فيمن بـــرم
أراوح فى صبيـــــة وادعـــين ... سوامية كصغار النعـــــم
واغـــدو على البكر المشرقات ... اليك وفى الحالــك المدلهـــم
وفى الفكر مركبه للنفـــوس ... وفى الارض مدرجة القـــدم
الى (ندوة) كمطيف الرجاء ... منضرة كبليـــــغ الكلـــم !
الى (مجلس) نطف بالدعاء ... تصان الحقوق بـــه والحرم
الى (معهد) انت يمنى يديه ... قداماه انـــت قسى أو رحـــم
تطير به صعـــدا للسمـــــاء ... لنبع بهـــا دافقـــا بالحكـــم
والهبتها ثورة فى البـــــلاد ... على جانبيها يشـــب العـــزم
تأكل اغرارهـــا الواهمـــين ... وتسحق من كبرياء « العمم »
ولما اعتزمت لمصر الذهـــاب ... وآن لرأيـــك ان ينحســزم
جنحت الى مزهرى فانتزعــت ... ملاحـــن فيها الهوى والالـــم
شددت بكفيك اوتارهـــا ... واودعت فيها شجى النغـــم

وقد ذكر لى صديقى الدكتور عقيل احمد عقيل ، بان القصيدة المذكورة لم تكن اعترافا من التجانى بفضل وجهاد استاذهفحسب، بل كانت مجاراة له ايضا فى قصيدته التى القاها فى حفل اقامه المعهد فى آخر العام ــ كعادته ــ والتى قال فيها :

قياما قياما مـــع القائـــــم ... فـــلا خـير للحالم النائـــم
ولست بمثن على « احمـــد » ... ومفتى الديار ولا « الجارم »
وغيرهمو مـــن ثراة البـــلاد ... من النفر القاعـــد القائـــم
الى ان ارى دعـــوة حقـــــة ... تـــرد الاصـــــول الى آدم

ولما قرأ الاستاذ حسين منصور قصيدة التجانى بمصر ، ثارت فى نفسه ذكريات مسقط رأسه « امدرمان » ، فارسل للتجانى قصيدة من نفس القافية والروى ، اشتمل عليها ديوانه«الشاطىء الصغرى » .

ولعل مما يؤكد عمق الرابطة بين التجانى واستاذه ، اعجاب التجانى بشعر استاذه اعجابا دفعه الى الاشادة به فى مقال نشره بالجريدة التجارية (العدد ١٥٥ـد - ٢٢ـ٢ـ٣١) بعنوان « الادب والفن عندنا » جاء به :

(انى لاعرف استاذا من الطبقة التى تغار على هذا الفن وكثيرا ماسمى الى تهذيبه وله فى ذلك القصائد الجمة التى لا تقل عن الشعر العربى متانة ودقة تعبيرية فى قالب من اللفظ العربى الصحيح المبنى على السهل الممتنع ولا ابخل عليك سيدى القارىء بذكر اسمه كما انى لا أخالك تجهل الاستاذ حسين منصور .

وفى الختام اضرع الى متعلمى الوطن ان يكونوا كلهم يدا عاملة فى رفع بلادهم الى مصاف البلاد الراقية وانزالها المحل اللائق بها من الفنون والآداب والذوق الانشائى والشعرى حتى نصبح أمة ولها مكانة من آدابها وفنونها .)

وعلى هذا ، فان فضل ذلك الاستاذ الكبير على التجانى عظيم، لا يمكن التنكر له .

والحق ان التجانى ، لم يحفظ الجميل له وحده ، بل حفظه لغيره من اساتذة المعهد ، بل حفظ الجميل لاستاذه فى الصحافة ايضا .

فلقد كان الاستاذ الاكبر المغفور له الشيخ ابو القاسم احمد هاشم، الذى أصبح رئيسا للمعهد العلمى، منذ عام ١٩١٢ ، يعطف على التجانى عطفا خاصا ، بل دأب على توجيهه ورعايته ، حتى احيل للمعاش فى اواخر عام ١٩٣٢ ، بعد ان ارسى قوائم المعهد على اساس متين . اذ كان هو اول من وضع لائحة للمعهد على غرار لوائح الازهر الشريف ، كما كان اول من ادخل نظام الشهادات العلمية من ابتدائية واهلية وعالمية ، واول من أسس بالمعهد

مكتبة علمية ضمت آلاف الكتب ، كانت ذخرا افاد منه الطلاب والاساتذة معا ، ولعل التجاني قد نهل منها كثيرا . اذا كان يتعذر عليه بطبيعة الحال شراء كل كتاب يرغب فيه .

ولما توفى استاذه فى ٢ـ٤ـ١٩٣٤ ، رثاه شاعرنا بقصيدة حزينة مؤثرة ، عنوانها « مدامع ومجامر » ، وقال فيها :

يا أبا القاسم المطل على العا	لم من نحده ومن علوائه
لك عندى كبرى يد نبهت ذك	رى واستنفرته من اغفائه
لك من عاتقى مواثيق ما اج	در ها ان تزيد من اعبائه
كنت فى رفقة من الناس موتى	فانتهجت الردى الى نزلائه
آملا ان ترى هنالك احيا	ء فحى الرغام فى احيائه
بعض من فى القبور موتى وبع	ض من كان فى فقدانه سبيل بقائه
بعض من فى القبور أوفر حظا	بنعيم الحياة واستيفائه
رب هب من لدنك روح ابى ال	قاسم ما لم تهب الى نظرائه
هب له رحمة السماء وبارك	فى ذراريه وفى ابنائه

ولم يكن ابو بكر محمد عليم استاذا للتجاني بالمعهد . ولكنه تأثر به مثلما تأثر باستاذيه ، وخاصة فى الفترة التى اصبح فيها عليم رئيسا لتحرير الجريدة التجارية وملتقى النهرين وشرع يكتب فيها مقالاته الافتتاحية الرائدة ، التى كانت تصدر بها المجلة ، والتى عالجت كثيرا من امراضنا وعيوبنا الاجتماعية ، الامر الذى جعل من عليم رائدا من رواد الصحافة والادب فى بلادنا ، وان غطى النسيان على تراثه العظيم .

لقد كتب عليم مقالات كثيرة ، لعله يكفى فى هذا المقام ، ان نورد عناوينها ، للدلالة على جوهرها واثرها ، وهى ــ دون شك ــ فى حاجة الى من يجمعها وينشرها ، خدمة للادب ، وها هى عناوين

المقالات التى كتبها فى الاعداد « ١٣٢ ـ ١٦٤ » العقل السامى ـ حياة الفرد لحياة المجتمع ـ الكذب والخيانة ـ التعود على حب العمل ـ الكبرياء والعظمة ـ الطمع خسة فى النفس ـ فساد الاخلاق ـ كسب المال وعلله ـ هذه الازمة فما علاجها ـ ما هى الفضيلة ـ النفوس المهذبة هى التى ترتقى ـ فساد الاخلاق ـ اشرف الغايات واحقرها ـ نظام المجتمع ـ الجهاد الشاق فى هذه الحياة ـ الحريةوالعبودية ـ حول افتتاح نادى الخريجين بالخرطوم ـ الاقتصاد واجب فى كل شىء ـ تختلف الجنسية وتتحدالوطنية ـ التعليم وسيلة لا غاية ـ لذة الحياة حسن الذكرى ـ التعليم واثره فى الاخلاق ـ دخول جريدتنا السنة الرابعة ـ تنازع البقاء ـ مهنة التجارة ومثبطاتها ـ نظرة فى السياسة الخارجية ـ كما التقى النيلان ببعضهما ، التقى الشرق بالغرب ـ التربية الاخلاقية ـ الانفعالات النفسية ـ رضاء الناس غاية لا تدرك ـ آراء فى تربية الجنس اللطيف .)

ولما توفى عليم فى ٢٩ـ٤ـ١٩٣١ ، انطلق شاعرنا يعبر عن حزنه وحزن البلاد جميعها عليه ، اذ يقول :

أسف مر وآهات أمر ... والتياع ملأ القلب شرر
كل من قيل له (مات) انزوى ... يعصر القلب بكف من حجر
امة تنقد فيه أمة ... وبلاء شكت منه الابر
شاعر الفصحى وما عودها ... هذر القول اذا عم الهذر
ينفث السحر ومن منطقه ... طالما اهتزت متون وغدر
وصحافى مشينا من خلفه ... واقتفينا فى المواضيع الاثر
ان احرى الناس بالخلد الالى ... وهبوا العلم شبابا وكبر
اخلصوا السعى له واستنزفوا ... كل ما فى ذرعهم من مصطبر
هذه عبرة خل صادق ... فى وداد والاخلاء غدر

كم وفى لك لا يلـوى عـلى زخرف السلوى ويأبى أن يسر

رابعا : فصله من المعهد :

عرفنا ان التجانى كان أحد اعضاء « جمعية الثقافة » بالمعهد، بل عضوا بارزا فيها ، كما كان متفوقا فى دراسته .

لذلك ، كان من الطبيعى ، ان يكون له اصدقاء من ناحية ، وخصوم من ناحية اخرى ، تربصوا به الدوائر ، وغضبوا منه لدى اختلافهم معه فى آرائه ، كعادة الطلاب والشباب ، عندما ينظرون الى الامور بحماس ، ومن زاوية واحدة .

وتواترت الرواية على ان فصله كان اثر مناقشة له مع بعض زملائه حول شعر شوقى وحافظ ، فقد قيل بان التجانى قـد احتد . وقال ان الفرق بين شعر شوقى وحافظ ، كالفرق بـين القرآن الكريم ، واى كتاب من كتب بنى البشر ، وقيل بأنه ادعى بان شعر شوقى فى مستوى القرآن من الفصاحة ، ويصعب الوصول الى حقيقة ما تفوه به التجانى .

مهما يكن من أمر ، فقد فصل التجانى من المعهد . وسنتناول فيما بعد مسألة فصله من المعهد ببعض الاسهاب ، اذ ان لى رأيا آخر فى هذا الصدد ، ولكن كيفما كان السبب ، فقد كان فصله من المعهد كارثة محققة اصابت قلب شاعرنا فى الصميم ، اذ شعر بعداء المجتمع له عداء سافرا ، وبقسوة اساتـذته عليه ، وتحدى زملائه فى الدراسة ، ولذلك فاضت قصيدته « المعهد العلمى » ، بعالم من الاسى العميق الدفين المؤثر :

هو مهدى ولئن حفظت صنيعه فانا ابن سرحته الذى غنى به

ما زلت اكبر في الشباب واغتدى ... ما بين بخ ويا مرحى بـــــه
حتى رميت ولست اول كوكب ... نفث الزمان عليه فضل شهابه
قالوا وارجفت النفوس واوجف ... ت هلما وهاج وماج قسور غابه
كفر ابن يوسف من شقي واعتد ... ى وبغى ولست بمابيء أو آبه
قالوا احرقـوه بل اصلبوه بل ... انسفوا للريح ناجس عظمه واهابه
ولو ان فوق الموت من متلمس ... للمرء مد الى من أسبابه !!

بل لعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان البيت الاخير وحده ينطوى على عالم من الالم الدفين العميق .

خامسا : ثقافته :

نهل التجانى من معين الدروس الدينية واللغوية التى تلقاهـا بالمعهـد .

وأملى على كرف ، لما سألته عن ثقافة صديقه ، ما يلى :

(كان التجانى اثناء دراسته فى المعهد، يدمن الاطلاع فى الكتب الادبية والتاريخية وكتب المتصوفة .

ومن أشهر الكتب التى قرأها ، كتاب « الملل والنحل » لابـن الفتح محمد عبد الكريم ابى بكر احمد الشهرستانى ، و«الرسالة القشيرية » لابى القاسم عبد الكريم هوزان ، و«الحكم » لابـن عطاء الله السكندرى .

وكان لهذه الكتب وغيرها ، أثر بعيد فى ارهاق حسه ، مما أضفى على اسلوبه ذلك الغموض الذى يبدو هنا وهناك فى بعض تعابيره ، وخاصة فى قصائده : « قلب الفيلسوف » و«الله » و « انبياء الحقيقة » و « الصوفى المعذب » .)

وبرهن ان التجانى لم يقتصر على دراسة الشعر الجاهلى ، بل

درس دراسة مستفيضة واعية الشعر العربى . قديمه وحديثه ، ويتضح ذلك فى كثير من مقالاته ، وخاصة مقاله « فى المستوى الشعرى للامم » ، الذى نشر فى مجلة الفجر فى العدد السابع ـ (١ـ٩ـ١٩٣٤) ، والذى يقول فيه معتزا وفخورا بثقافته الادبية :

(مما نحمد عليه الله ان دراستنا للشعر العربى لم تكن من نوع الدراسات التى يتناولها بعضهم ناقصة من كتب العصر مبتورة من بين يدى الكتاب . ثم يصدرون عنها وهم اشد قنوعا واكثر ثقة فى نفوسهم بما فقهوا من صور الادب واستظهروامن الوانه .. انما كانت دراستنا له دراسة استقراء وتفهم يؤسسها انقطاعنا الى قديمه ...

اجل مما نحمد عليه الله ان مهد لنامن دراسة الشعر العربى ما يؤهلنا للحكم عليه فى ضوء الحديث والبحث عما أثر فيه من عوامل وعمل فيه من مؤثرات فى كل ما مر به من اطوار ..)

وكان التجانى دائم الاطلاع على المجلات المصرية ، مثل البلاغ الاسبوعى والمقطم والهلال والمجلة الجديدة وابولو وعلى آخر منتجات الفكر العربى عامة ، والمصرى خاصة ، بل ان التجانى أقر بفضل الثقافة المصرية فى صراحة وقوة ، اذ قال :

كلما انكروا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعا وفكرا .

ولذلك ، كان من الطبيعى ان قرأ التجانى ـ كمعظم معاصريه ـ مؤلفات ابراهيم عبد القادر المازنى وعباس محمود العقاد وطه حسين واسماعيل مظهر واحمد أمين وحسن أحمد الزيات كما قرأ ما نقل من اللغات الاجنبية الى العربية ، وكان قليلا ، الى درجة تمكن المثقف على الاطلاع على معظمه .

ويبدو ان التجانى كان معجبا بروايات شوقى الشعرية ، وانه تأثر بها تأثيرا بالغا . مما دفعه ـ وهو طالب بالمعهد ـ ان يكتب

نقدا « حول رواية مجنون ليلى » (الجريدة التجارية ــ العدد١٥٩ ــ ٢٣ــ٣ــ١٩٣١) .

ولقد اطلع على الشعر المهجرى أيضا ، وعلى الشعر السورى واللبنانى . وله فى ذلك رأى نود ان نثبته . وقد نشره بمجلة الفجر (العدد ٦) . واشتمل عليه مقاله : « فى المستوى الشعرى للامم » :

(والادب السورى ادب « كنيسة » يتحرق على « مجامره » الشعراء والكتاب وتستاف من « عطوره » نفوسهم الهائمة التى طبعت على الرقة واللين وحب الجمال ...

أما المستوى الشعرى لهم فهو حيث تركه (جبران) خيال وافراط ما تكاد تتبين معه الا متعة الخيال .)

ونقد التجانى عام . ولذلك يعتبر نقدا سليما للادب المهجرى. وخاصة ان كثيرا من شعراء المهجر قد أمتد بهم العمر، وانضجتهم التجارب ، وانتجوا روائع القصائد فى الفلسفة وفى الطبيعة .

ونتقد ان قراءة التجانى لاشعارهم ، كان لها بعض الاثر فى شعره . وخاصة عندما يميل الى استعمال بعض الالفاظ التى اكثر شعراء المهجر من ترددها . مثل الغاب والهزار والمزهروأيار ونيسان . وعندما يمزج عواطفه الانسانية بظواهر الطبيعة المختلفة . لقد تأثر التجانى بشعر المهجر ، مثلما تأثر الشابى والهمشرى وابناء جيله كله .

ولقد اشار التجانى فى غير موضع من مقالاته . بانه قرأ الشعر الغربي مترجما الى العربية . ولا نشك . والحال هذه . انه اطلع على ماترجم منه فى الرسالة والثقافة وابولو .

فمنذ ان صدرت ابولو عام ١٩٣٢ وهى تنقل الى العربية بعض مقطوعات من الانجليزية والفرنسية . ولعله يكفى ان نذكر بعض

القصائد فحسب وهي : (ليالي الفريد دي موسيه ــ ووداع هكتور لشلر ــ ومرتيه لملتون ــ وعمريات الخيام ترجمة ابي شادي ــ وما اعظم الهم لتوماس هاردي ــ والطفل النائم لهوجو ــ والزمن والحب لشكسبير ــ والى قنبره لشلي ..)

ونعتقد ان تلك القصائد وغيرها . لربما حازت على اعجاب التجاني بوصفها شيئا جديدا عليه ، الا اننا نشك في انها لقحت تفكيره ثقافيا . على اى وجه من الوجوه .

ورغم عدم تأثره بتلك التراجم ، الا اننا نعتقد انه اعجب ببعض شعراء ابولو ، مثل ابي القاسم الشابي وابراهيم ناجي . واحمد زكي ابو شادي ومحمد عبد المعطي الهمشري ، كما كان يعجب ايضا باشعار عمر ابو ريشة وعلي محمود طه .

ولم تقتصر ثقافة التجاني على كل ذلك فحسب . بل انه اطلع على معظم ان لم نقل على كل الادب السوداني ، وانه كان يقرا الجرائد والمجلات السودانية أولا باول ، بل كـــان من اوائـــل المساهمين في تحريرها . على ما سيتضح ذلـك مـــن الفصول القادمة .

سادسا : صفاته واخلاقه :

كان التجاني ضعيف الجسم نحيف العود متوسط الطول ،غائر العينين . وكانت تعلو وجهه مسحة من الشحوب والوجوم تضفي عليه دائما صفة الرجل الجاد . وكان لصوته بحة محببة .

ورغم تلك الجدية . فانه كان رضي الخلق محبا للناس ، يحترم الكبير والصغير . ويعامل الناس في رفق ولطف ولين . ولم يحاول ان يخدش او يجرح احاسيس احد ، ولكنه لا يميل الى الحديث كثيرا . اذ انه كان اجتماعيا يتعرف على ابناء حيه

والاحياء المجاورة ، ولذلك كان له اصدقاء واصحاب كثيرون .. نذكر منهم على سبيل المثال ـ غير من سبق ذكرهم ـ عبد القادر ابراهيم تلودى وطراف النميرى والتجانى عامر وعوض ابو زيد وابراهيم يعقوب وداود سعد وابراهيم سليمان منديل وجوزيف لطيف صباغ وخالد آدم ويحيى محمد عبد القادر والطيب محمد خير وجعفر باكر جعفر وحسن محمد الامين ومحمد احمدالخليفة ابراهيم والريح عيدروس وسعد سليمان تادرس وصادق حنا والخير هاشم ويوسف التنى وبولس سلامه وكان له كمعظم الشباب امثاله « شلة » للانس والسمر احيانا .

وكان التجانى مرهف الحس الى حد بعيد ، واحترامه الشديد لنفسه وكبرياؤه الشخصى ، جعله يبدو لبعض الناس ، كما لو كان مغرورا مزهوا بنفسه . وخاصة لميله لمجالسة كبار العلماء والاساتذة ومناقشتهم ، ولم يكن يصدر ذلك عنه الا رغبة فى الاستفادة بمزيد من المعرفة واعتدادا بنفسه ولميله الطبيعى للعزلة .

واعتاد التجانى على ان يتغنى بشعره فى عزلته ، او بين الاقربين من خلصائه واصدقائه .

وقد زاده المرض نحولا كما اشتدت حساسيته منه ، الامر الذى نتناوله بالتفصيل فى الفصل القادم .

الفصل الرابع

مرض الشاعر

عاش التجانى سبعة وعشرين عاما ، واقتطفته يد المنون فى ريعان الشباب عام ١٩٣٧ ، بعد أن أنهكه الداء الوبيل ، الذى طغى بكلكله على رئتيه ، دون ان يستطيع التغلب عليه ، وأنى له ذلك ، والفقر المدقع لا يسمح له باشباع حاجاته الضروريةاو الاستمتاع باوقات فراغه او الخلود للراحة .

ولربما ساعد على تدهور صحته وتشاؤمه وعصبيته وضيق خلقه فى آخر عمره .

ويصعب ان نحدد الوقت الذى ألم به المرض ، وان كان من المسلم به انه مات نتيجة مرض الصدر ، وان المرض كان ذا أثر فعال على نفسه .

ويغلب على ظنى ان التجانى عانى من المرض خلال سنتين او ثلاث سنوات فحسب ، وانه ضاق ذرعا به ، حتى انه ابتعد عن معظم صحابه واصدقائه ، كما نفر من الجلوس مع الناس ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، احيانا ، اذ كان يأمر والده ــ أعز الناس لديه ــ بالابتعاد عنه ، حتى استشعر بقسوته فى مواجهته ، ولكن اغلب الظن ، ان التجانى المسكين كان ينوء تحت اثقال الداء، الذى مزق صدره ، وحطم امانيه ، وجعله قاب قوسين او ادنى من الموت ، اذ كان داء الصدر وقتئذ فتاكا ، بل داء عضالا ، والشائع الا برء منه ، وعلاجه مستعصى بالسودان ، ولذلك يئن

ضحيته . تحت رحمته . ومن ثمة ، احس التجانى بان الداء قد اختزل جسمه اختزالا بل شوى عظامه فى حرقة بالغة . وامتص دمائه . حتى ضعف عوده . واصبح هيكلا عظميا لا يستطيع فكاكا اوحراكا . وغارت عيناه . ورجفت اوصاله . واستبد به الهم . حتى صرخ قائلا . وكأنه يرثى نفسه ، قبيل وفاته . فى قصيدته « فاحتفظها ذكرى » :

يا «انيس» الحياة يقطر منك!! طيب نبلا وتعبق الاخــلاق
يا اخا الروح عادنى منكم الغيـ ث كثير وليس فيه ابتـــراق
غمرتنى نعمى يديك على حين تجنت على هواى الرفـــاق
ما على القلب منهم وبحسبـى صاحب ملء روحـــه اشفاق
ايها الشاعر المجيد ومجد الشـ ـعر مما تدوى بــه الآفـــاق
ارأيت الصديـــق يأكل الدا ء ويشوى عظمـــه المحـــراق
مارد هده السقـــام ولكـن صبره الجم للضنـى دفـاق
جسه من عوده الندى فتعـرى وتنفـــت مـن حوله الاوراق
وذوى قلبه النضير وقد كـــان لـــه فى زمانـــه تخفـــاق
رحم الله عهده ذلك عــــا د فعندى لدهرنـــا ميثـــاق
وانا اليوم لا حراك كأن قـــد شد فى مكمن القوى اوثـاق
بت استنشق الهواء اقتسـارا نفس ضيق وصـــدر طـــاق
وحنايا ممزوقــــه وعيـون غائرات ورجفـــة ومحـــاق
ما لنا دون ذا احتيال فان الـ ـله فى علمه الشؤون الدقـاق
لى رجاء فى رحمة الله لمـــا وسعت فى الحيـاة ما لا يطاق
فالشفاء الشفاء يا رب والعفو وزدها قوى اذاهـــا الوثاق
كيف اجزيك يا أنيس وما لى من يد بالجزاء مثلى تسـاق
فالقريض الذى تقدر لا اعلـ ـم ان كان فى الجـــزا يشتاق

فاحتفظها ذكرى فان متفاقرأ بينها الحب ما عليه مـــذاق
او حيينا فسوف نقرأ فيهـا فترة لا اعادهـــا الخـــلاق

ولقد صدر الاستاذ محمد فهمى فى كتابه « روائع شعراء الجيل » . القصيدة المذكورة بما يلى :

(ننشر هذه النفثة الحارة من نفثات الشاعر المأسوف عليه المرحوم التجانى يوسف بشير . وهى قصيدة من اسمى ما قرأت من الشعر فى روحها وفى معانيها وفى ما تحمل من أسى وشجن ومن دموع وآلام .

هى قصيدة من قلب ممزق قد نال منه تنكر الصديق ومجافاة وقسوة المرض والاذى المتكالب ومـا لقى فى العالم مـن عذاب واخناق فخرجت صادقة مخلصة .

هى قصيدة متفجرة من نفس تشعر بانها فى كل ساعة يعدو عليها الاضمحلال .

وتتعادى نحوها ذئاب المنايا غير رقيقة ولا لينة .. والقصيدة مهداة الى صديقه الشاعر الكبير الاستاذ أنيس)

كان التجانى ذا حساسية بالغة ، وقد زاده المرض احساسا بقيمة الصحة والعافية . وترسبت فى نفسه من جرائه آلام دفينة عميقة . اذ انك لا تجد فى قصيدته الاخيرة روح التجانى المتحررة الثائرة . ولكنك تجد نفس الانسان الضعيفة المستسلمة .

لقد كان المرض احد الاسباب التى جعلت طعم الحياة مرا فى نظر التجانى . وكان من بين الاسباب أيضا فصله من المعهد ، ولكن لعل السبب الرئيسى لبؤسه وبؤسنا هوما كان يعانيه ـ ولا نزال ـ من الفقر وانخفاض مستوى المعيشة فى بلادنا ، ولكن قبل ان نتناول البحث عن الحرمان فى شعره . نرى لزاما علينا ان نبحث فى ايجاز عن الوجدان الاجتماعى للتجانى كشاعر وناثر .

الفصل الخامس

الوجدان الاجتماعي

الانسان كائن اجتماعي ما في ذلك من ريب . ولذلك ، فانه يؤثر في المجتمع الذي يعيش فيه . كما يتأثر به دائما .

وفي المجتمع الفردي ، لا يمكن القول ان الانسان يعيش فيه منفردا او مستقلا بذاته ، كما لا يمكن الادعاء بانه لا يأبه بالتعاون والتكافل مع غيره من افراد الجماعة ، ولكن رغم ذلك ، يعتبر وجدان الفرد العادي ، وجدانا ذاتيا او انفراديا . اي انه وجدان يغلب المصلحة الخاصة في الاعتبار الاول ، وبعبارة اخرى ، فما دام المجتمع يقوم على الملكية الخاصة ، فان التربية التي يحظى الانسان بها . تكيف حياته . وتعلمه بل تجبره على تغليب مصلحته الخاصة ، للاثراء سواء عن طريق مشروع او غير مشروع ، ولحيازة اكبر عدد من الاشياء او أضخم مبلغ من الاموال ، للتمتع بها وعائلته ، وتقتصر آماله ومطامحه على اقتناء القصور والحدائق الغناء وافخر الثياب والاثاث ، وتتركز كافة افكاره حول الماديات والمتع الحسية . ولا يعتبر ـ والحال هذه ـ التعاون مع الغير أو خدمة الجماعة او التثقيف الذاتي ، الا أمرا عارضا يمارسه او يلوذ اليه بعض الوقت .

ولقد صور الاستاذ محمد احمد محجوب النزعة الفردية في قصيدته « نفسي » ، (النهضة ـ العدد ٦ ـ ٨ـ١١ـ١٩٣١)، وصدرها بمقدمة مؤثرة عبر فيها ـ في نظري ـ عن نفسية جيل باكمله ، اذ قال :

(استحوذت على فى الايام الاخيرة فكرة مؤداها ان الكل فى هذه الحياة يعيش لنفسه ويتفانى فى حبها واذا نال الناس بعض الخير منها فما هو الا من قبيل فتات الموائد يصيبه المساكين والفضوليون.

وصرت ارى ان حبنا لمختلف انواع الجمال ومنتوجات الفنون ما هو الا حب هذه النفس يتمثل فى العالم الخارجى وان جرينا وراء تحصيل العلوم والآداب وجمع المال ما هو الا ابتغاء مرضاة النفس .

وقد يبدهنى سائل : « اذن لماذا تقدم شعرك ونتـــاج أدبك للناس وقد كتبته من اجل نفسك ؟ »

فاقول : « انشره من أجل نفسى طلبـــا لشهرتها واشبـــاع كبريائها » وانى لارى ان جميع الناس يحسون بهذا الشعور ولكنهم لايقدمون على اظهاره وذلك حبا لنفوسهم وخوفا من ان ينتقدهم الآخرون وبهذا اكون أقل الناس حبا لنفسى) .

والبيت التالى هو جماع فلسفته، بل هو جوهر الفلسفةالفردية والمجتمع الفردى :

أنا لا افارق حب نفسى ساعـة والكون أجمعـه لذلك يجهـد

وعلى هذا ، كان من الطبيعى ، ان يكون بعض شعر التجانـى ذاتيا فرديا ، ذلك ان الشعر فى بعض المسائل الخاصة . يعبـر بطبيعته ، عن حالة خاصة للشاعر ، كما ان الشاعر فى كثير من الاحيان ، لا يميل الى التعبير عن نفسه، الا ان ساوره انفعال عميق أو عاطفة جامحة او تفكـير عميق ، كما انه مـا دامت دراسة الشاعة وثقافته واخلاقه قد قامت على اساس وجوده فى مجتمع فردى ، فلا مفر له عن العواطف والاخلاق الفردية .

ولذلك فمما لا جدال فيه ، انشعره الغزلى شعر ذاتى .وكذلك بعض قصائده مثل « فى زورق » و « دمعة على طفل » و«اللمحة

الخالدة » و « على قبر حبيب » .

وفضلا عن ذلك ، فان بعض اشعاره فى وصف الطبيعة ،تعتبر من الشعر الذاتى .

اما فيما عدا ذلك من قصائد . فاننى اعتقد ان التجانى وان كان صادقا فيها فى التعبير عن انفعالاته النفسية او تجاربه الذاتية أو مشاكله الشخصية أو آرائه الخاصة . الا انه كان يعبر فيها ـ فى نفس الوقت ـ عن روح انسانى او ان شئت فقل عن وجدان اجتماعى اى واقعى .

ولذلك ، فان المواطن السودانى يتجاوب مع مشاعر التجانى فى قصيدته « الخلوة » . وينفعل معه فى كل بيت من ابيات قصيدته«فى المعهد العلمى»، ويأسى معه فى«دنيا الفقير» ويسخط معه فى «الادب الضائع» . ويطرب معه للدوبيت « فى الادب القومى » ويشاركه اعجابه فى «ثقافة مصر» . ويتألم معه فى قصائد شكه ورثائه ويعجب معه فى مدحه لعظماء المؤرخين والشعراء والكتاب فى السودان .

وعلى هذا فاننا نعتقد ان القارىء لنثر التجانى وشعره ،يمكن له ان يدرك فى يسر ان التجانى كان ذا وجدان اجتماعى،ذلك لانه لم يكن يرغب فى العيش لنفسه فحسب . بل بغرض تغيير المجتمع الذى عاش فيه . ومذهبه فى الادب . والحال هذه ، هو الواقعية .

فعلى الرغم من انه كان يعمل فى وظيفة مصحح بالجريدة التجارية منذ عام١٩٣١ . وبملتقى النهرين . فيما بعد ذلك ايضا، الا انه لم يتقيد بحدود وقيود وظيفته فحسب . بل ساهم بالكتابة تشجيعا للادب من ناحية . وعملا على تقدم وازدهار الصحافة من ناحية اخرى .

ويتضح ذلك جليا فى مقالاته « الادب والفن عندنا » (الجريدة التجارية ـ العدد ١٥٥ ـ ٢٢ـ٢ـ١٩٣١) . و« حول رواية

مجنون ليلى » (الجريدة التجارية ـ العدد ١٥٩ـ٢٣ـ٣ـ١٩٣١)، الاجرام فى التاريخ (ملتقى النهرين ـ العدد ١٦٣ ـ١٩ـ٤ـ ١٩٣١) الصحافة (ملتقى النهرين ـ العدد ١٧٧ ـ ٢ـ٨ـ ١٩٣١) .

ويخيل الى انه ساهم ايضا فى كتابة مقالات بمجلة النهضة السودانية ، وان لم تكن بتوقيعه ، وسنتناول ذلك بتفصيل اوسع فى فصل قادم .

وساهم بانتاجه النثرى فى مجلة «الفجر» . فكتب مقالات نذكر منها : « فى المستوى الشعرى للامم» (العدد ٦ ـ١٦ـ٨ـ١٩٣٤) « مشكلة ادبية كبرى بين الشاعر والناقد » (العدد ١١ ـ ١ـ١١ـ١٩٣٤)

ورغم انه كان المحرر الاول فى مجلة «ام درمان» . التى اصدرها المرحوم محمد عبد الرحيم عام ١٩٣٦ . ويتقاضى اجرا على ذلك بطبيعة الحال ، الا ان مقالاته فيها . كانت تدل على انه كان يهدف من التحرير غايات اجتماعية سامية ، وليس مجرد اداء لوظيفته ، اذ انها تدل على وجدان اجتماعى بارز وممتاز ، وسنكون تلك المقالات محل البحث . عندما نتناول نثره فيما بعد .

لكل ذلك . يمكن لنا ان نقول ، ان التجانى كان يسعى الى الرزق . ليعمل مصححا تارة او محصلا تارة اخرى ، كغيره من الناس . ولكنه عاش حياته يدرس ويجول فى آفاق الفكر والمعرفة . وكان ذا هدف واضح محدد . هو نشر الثقافة بين المواطنين . ونقل المعرفة الى غيره . سواء عن طريق النثر او الشعر .

ولذلك ، كانت مقالاته بالجريدة التجارية وملتقى النهرين .

من بين اسباب تقدم وتطور المجلة . كما كان من بين الاسباب أيضا، المقالات الافتتاحية الرائعة التي دبجها قلم استاذه ابي بكر محمد عليم ، اذ انه بتعاون التلميذ مع استاذه اتخذت المجلة طابعا ادبيا زاهيا ، بعد ان كانت مقالاتها مقصورة على النواحي التجارية والزراعية فحسب .

وأثارت مقالات التجاني في « الفجر » نقدا شديدا ، وكانت مقالاته بمجلة (ام درمان) ، تهدف الى تطوير الحياةالاجتماعية عموميا . في حين ان صاحبها كان يهدف الى خدمة التاريخ في الاعتبار الاول . وعلى هذا لم تكن حياة التجاني خمولااو كسلا اوتراخيا او جريا وراء الشهوات والملذات الحسية او البدنية ، بل كانت حياة جادة هادفة . اذ اشتعل فؤاده حماسا وقلبه لهيبا، وفكره ازدهارا . لكي يغير من البناء الاجتماعي لمجتمعه ، ولكي يطوره الى افضل ، وبذل من وقته وراحته ، ومن اعصابه ودماء شبابه . الكثير لكي يشق طريقه في الحياة ، ولكن ما كان يستقر في عمل ــ أبسط عمل ــ حتى تتقاذفه امواج الحياة من جديد ، وتقهره ليترك عمله الى عمل آخر . ورغم صراعه ومثابرته على الحصول على عمل جديد . ورغم عداء بعض الناس له ، وحسد بعض زملائه ، استطاع التجاني ان يكون احد الكتاب القلائل في كل مجلة صدرت أثناء حياته ، ولهذا كانت حياة التجانيمثالا للشباب المناضل المثقف .

ويرى بعض النقاد انالتجاني كان يهدف من وراء نشره او شعره، الى الظهور او اثبات تفوقه على اقرانه او التنفيس عن نفسه ، ويضربون لذلك مثلا ، انشاده للشعر بمناسبة وفاة بعض العظماء او مدح بعض العلماء ، ولكننا نرى انه ــ سواء في شعره ام نثره ــ لم يكن يصدر عن غريزة حب الظهور او الشهرة

ولكنه ــ في الاعتبار الاول ــ كــــان ينفعل بالاحداث الجارية المحيطة ببلاده ، ويعبر عن عواطفه تجاه اساتذته او زملائه ،او العلماء الكبار في البلاد .

وقد عرفنا علاقة التجانى بابى القاسم احمد هاشم وابى بكر محمد عليم ومحمد عبد الرحيم . ولذلك فان قصيدتيه فى رثاء كل من ابى القاسم وابى بكر تعبير عن عواطفه الذاتية الحميمة الصديقة نحو كل منهما من ناحية ، كما انها تعبير عن حــــزن الشعب لدى فقد عظيمين من ابنائه ، من ناحية اخرى .

وقصيدته في مدح محمد عبد الرحيم ، تقدير للمجهود العظيم الذى بذله في سبيل تدوين التاريخ السودانى .

والحق ان المغفور له محمد عبد الرحيــــم ، الذى توفى فى ٤ـ٦ـ١٩٦٦ يعتبر الرائد الاول فى مجال نشر التاريخ ، ولئن نشر فى حياتــــه نفثات اليراع ، والنداء فى دفـــع الافتراء ، والصراع المسلح على الوحدة فى الســـودان ، والعروبـــة فى السودان . فان تراثه الذى سبق نشره مثل مؤلفاته المخطوطة ، يجب الاهتمام به ، ونشره جميعه . بل يجب ان يدرس مجهود ذلك الرائد . وان طوى الزمان حياته مثلما طوى حياة التجانى، الا ان تراث كل منهما لا يزال معلما فى تاريخنا .

وأثنى التجانى على مجهودات الاستاذ « سليمان كشه » لما اصدر مجلة « مرآة السودان » عام ١٩٣٤ ، بقصيدة عنوانها « تحية »، وقد جاء فيها :

أكبرت فيك النبل غــير مــــوارب
ابدا وكنــت أخذت من اسبابـــه
قــــدرت فيــك سعى القوى يمـــو
ج بالدنيـــا ويأخذهـــا لدرك طلابه

يرفض مسوار اليراع بكفه
ويفيض زخار النهى برحابه

والبراع الذى افتخر به التجانى ، أصدركتاب « سوق الذكريات ـ ١٩٦٣ » وكتاب وثبة السودان الاولى » عام ١٩٦٦ والخرطوم والمهدية (١٩٦٦) واثنى شاعرنا على مجهود الشاعر ابراهيم العبادى ، لما اصدر مسرحيته الشعبية « عائشة بين صديقين » ، كما قرظ رواية « فتاة المستقبل » لمؤلفها الاستاذ خالد احمد سليمان ، وافصح عن اعجابه بالشعر الشعبى ، الذى يعتمد على اللغة السهلة التى يتداولها الناس او الدوبيت .

وفضلا عن كل ذلك ، فقد كان التجانى يساهم فى نشر الثقافة بمحاضراته التى كان يلقيها فى النوادى الثقافية والرياضية ، كما كان يتردد على نادى الخريجين بامدرمان، فى يومى المحاضرات والمناظرات . وكان النادى يزخر بالنشاط الادبى والسياسى وقتئذ .

ولا نجد للتجانى قصائد سياسية ، ولكن نجد له ابياتا وطنية تتناثر هنا وهناك فى ديوانه . وذلك يرجع بطبيعة الحال ، الى المناخ السياسى المظلم الذى كان سائدا فى عصره .اذ كان الكاتب والشاعر يكتب وسيف الارهاب مسلطا على رقبته ورقاب اهله وعشيرته . وما كان أيسر للحاكم الانجليزى من الامر بفصل العامل من عمله او الموظف من وظيفته ، ان اشتم من كتابته روحا وطنية ظاهرة . بل كان من السهل تعطيل الصحيفة أو المجلة التى تنشر للشاعر او الناثر الثائر ، تعطيلا اداريا ، دون اللجوء الى القضاء .

وللتجانى قصيدة عنوانها « اليقظة » ، يمكن تفسيرها تفسيرا

رمزيا ، على انها دعوة للقضاء على الجهل والبطش والاستعمار ، وفيها يقول :

في الليل عمق وفي الدجى نفق ... لو صب فيه الزمان لابتلعه
لو مزق الرعد مسمعي أحد ... في عمق ذاك الدجى لما سمعه

مرت عليه الحياة تعبره ... في زورق اعرف الذي صنعه
حتى اذا ما استقل آذيه ... طغى عليه العباب فابتلعه
وكان دهر ونكبت حقب ... و(الجهل) يفري على ثرى سبعه

يرد سهم الضياء دارعه ... ويحتمي بالكهوف ان تزعه
حتى افاض الضياء وانفجرت ... عين من النور شردت بدعه
فاليوم لا مركب الضحى عسر ... ولا مراقي السماء ممتنعه
ضوء من العلم في مدارجه ... نسعى وللعلم في الوجود سعه

ورغم الرمزية التي تشيع في هذه القصيدة ، بل رغم الغموض الذي اعتور بعض ابياتها ، الا انه من الواضح ان ليس هناك عام ١٩٢٦ من كانت له مصلحة في فرض الجهل واستمراره في السودان غير الاستعمار ، اذ انه هو الذي حارب التعليم ، فلم تكن المدارس تفتح الا بعد اتخاذ اجراءات طويلة مملة ، وفي المدن الكبرى وحدها .

ولقد طرب التجاني ليقظة شعبه واهتمامه بالتعليم ، ذلك انه كان يرى الثقافة عاملا من عوامل الرقي والنهضة والتقدم وتطور وازدهار الوجدان الاجتماعي لدى كل مواطن .

الفصل السادس

الحرمان في شعره

كان التجاني فقيرا .

وعاش كملايين المواطنين عيشة ضنك ، لا يجد فيها غير الكفاف واشباع الضرورات ، او ان شئت ، فقل بعض الضرورات .

والده يوسف بشير صانع وبائع احذية بسوق امدرمان ، كان ولا يزال يكسب عيشه وعائلته بشق الانفس .

ولذلك ، لم يكن من المستغرب، ان يلتحق التجاني بالمعهد العلمي، اذ الدراسة فيه دون مقابل ، فقـــد كان ابناء الطبقة الفنيـة والوسطى يلتحقون عادة بالمدارس الابتدائية ، سواء الحكومية منها او الاهلية .

وكان التجاني يقيم مع والده في منزل من الطين ، مكون من عدة غرف ، كأكثر بيوت امدرمان ، ولا تزال اسرته مقيمة بنفس المنزل دون ان تصيبه يد التغيير او التعمير .

ولم يكن بمنزل والده مواسير للمياه ، ولعلها لم تتصل بمنزله الا بعد ان عم انتشارها عام ١٩٣٢ تقريبا ، وكذلك لم يكن به تيار للنور الكهربائي ، فكان لكي يواصل التجاني قراءته ليلا ، يجلس وضوء لمبة صغيرة بجانبه ، كانت تشترى بمليم واحد .

وقيل ، بانه لطالما واصل القراءة ، حتى يفرغ غاز اللمبة ، ليترك دخانها القاتم أثرا على جبهته .

من قرأ تحت ضوء المسرجة او اللمبة او الفانوس ، لا يمكن

ان ينسى ما كان يعانيه من ظلام وضيق وارهاق واجهاد للعينين وللاعصاب ،ولا بد ان يدرك مدى مالاقاه التجانى من ذلك .

وامتشعر التجانى ، وهو بالمعهد ، بان عائلته فى حاجة الى معونته المالية ، ولذلك ، التحق بالجريدة التجارية عام ١٩٣١ ليعمل مصححا بها ، تلك التى اصدرها المرحوم سليمان داود منديل عام١٩٢٨ ، والتى اضحت تسمى « ملتقى النهرين » منذ صدور العدد رقم ١٦٠ بتاريخ ٣٠ ـ ٣ ـ ١٩٣١

ولما فصل من المعهد ، وكان ذلك عام ١٩٣٣ على ما سبق ان عرفنا ، لم ير بدا من التحاقه بعمل يرتزق منه ، ويخيل الى ان التجانى قد قاسى فى تلك الفترة مرارة الحرمان من الثقافة ، وهو حرمان يكاد يماثل قسوة الحرمان من العمل الذى يرغب فيه، ولذلك حاول اغراء والده ليسمح له بالسفر الى مصر ، لاكمال تعليمه بالازهر . ولما رفض والده طلبه ، اعد عدته للسفر ، وذهب الى محطة السكة الحديد بالخرطوم ، ولكن ترامى خبر سفره لوالده ، فاسرع اليه ، وأجبره على العودة معه ، فعاد ادراجه كليما حسيرا ، ولذلك امتشعر التجانى بألم عميق دفين، عبر عنه فى شعر يقطر اسى وتمردا اذ يقول فى قصيدته «امل»:

أمل ميت على النفس الحد ... ت له من كلاءة الله قبرا
زهقت روحه وفاضت شعاعا ... قبلما ينفد الطفولة عمرا
كنت احيا على ندى منه يسا ... قط بردا على يدى وعطرا
فى ظلال مطلولة افرغ الشد ... عر عليها من الهناءة فجرا
ثم أردى يا ويحه ضاقت الدنيـ ... ـا به جهدها احتمالا وصبرا
بعدما نضر الحياة بعيد ... ى مضى جاهدا وأعقب أسرا
ان لقينا منها على البعد ريا ... ما لقينا منها شواطىء خضرا

وعلى هذا ، لم يفتقد التجانى وسائل الراحة والرفاهية فى المنزل فحسب . بل افتقد حقه فى مواصلة التعليم فى بلده ،فضلا عن خيبته فى السفر الى مصر للالتحاق بالازهر ، كما افتقد المال الذى يرفه به عن نفسه أو يلهو به مع اترابه ، ومن ثمة مر عليه يومه كأمسه . وليله كنهاره ، وكان من الطبيعى . والحال هذه . ان يفكرالتجانى فى نفسه ، فلا يزيده التفكير الا اضطرابا ، ويفكر فيما حوله . فلا يجد الا خداعا ورياء ، وغربة وضياعا . اذ انه لم يجد من يقدم له من اهله او اقاربه واصدقائه او معارفه او مواطنيه . المعونة الصادقة ، وكيف يقدم له الناس وقتئذ معونة ، والفرد حينئذ لا يعيش الا لنفسه ، وليس ثمة تفكير بان تقدم الحكومة معونة أو خدمة لاحد ، اذ كان الاستعمار جاثما على صدر البلاد ليخنقها ويستغلها ويمتص مواردها ، وكانت الازمة المالية قد أنشبت أظافرها بخناق البلاد منذ عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٣٣ .

ولم يكن التجانى وحده ، هو الذى ضاق بالازمة المالية ،والقيود الاستعمارية ، بل ان كثيرا من ادباء الاربعينيات ضاقوا بالفقر ضيقا شديدا ، ولعنوا الحرمان لعنات تمثلت شعرا ونثرا سواء بالنسبة لمن التحقوا بالوظائف الحكومية او من عملوا بالصحافة .

وصور الاديب محمد احمد محجوب الذى كان من طليعةالرواد الذين نشروا روائع ادبهم فى مجلات النهضة والفجر ومرآة السودان . الحياة فى نظر المواطن السودانى . فى مقال عنوانه « الحياة كما اجدها » . نشر بمجلة « النهضة السودانية ، فىالعدد التاسع (٢٩ـ١١ـ ١٩٣١) . تصويرا يكاد يعبر تعبيرا صادقا عن احاسيس ومشاعر ابناء جيله . اذ يقول :

(الحياة تختلف حسب نظرات الناس اليها وشعورهم نحوها

واحساسهم بها ، ولذا ليس بالغريب ان نرى هذا الاختلاف بين الناس وفى المشارب والامزجة .

فهذا يجد لذته في المرح واللهو وذاك يجدها في التعب . وثالث فى القوة ، ورابع فى الدرس واستقصاء الحقائق ، وخامس فى تعقب الناس وفضح اسرارهم وهكذا الى آخر ضروب الحياة المختلفة .

وهذا الاختلاف ناشىء من البيئات التى يعيش فيها الافراد والجو الذى يحيط بهم واساليب الحياة التى يجدون عليها ذويهم، وطبيعة البلاد التى يسكنونها وظروفها الماضية والحاضرة التى تتمخض عن المستقبل بشروره وخيراته التى لا يعرف كنهها .

ولكن لهذا الاختلاف نقطة اتفاق عامة تلتقى عندها كل السبل!

والناس لا يتفقون الا فى السخط على الحياة والملال منها فهم يجدونها مهما اختلفت الوانها عبئا ثقيلا لا يطيقونه ، ولقمة مريرة لا يسيغونها وبودهم لو يظفر الواحد منهم بحظ اخيه الذى بدوره يطمع فى حظ ذلك الساخط على حظه ...

انى لاجد من الحياة غبنا يحز فى نفسى ويؤلمنى كثيرا وذلك لاني اراني متخلفا عن كثير من المحظوظين الذين تهبهم الحياة بغير حساب وتفتح لهم خزائنها فينالون من الثراء ما يجعلهم ناعمى البال يلبسون من الثياب افخرها ويأكلون ويشربون ما لذ وطاب من انواع المأكل والمشارب وينهبون الارض بسياراتهم الفخمة ويمرون بجانبى وانا فى شبه غيبوبة عن هذا العالم بآلامى التى أقاسيها وآمالى التى اعلل النفس بها واخادعها بان الايام ستنفذها وانا عليم بكذب هذه الامانى التى ينسجها خيالى ، وتقبلها نفسى المسكينة المحزونة ...

وانتهى الى النتيجة الطبيعية الا وهى كلنا يبغي الحياة لنفسه

والحياة لا تعبأ بالجميع) .

أجل لم يكن التجاني هو وحده الذى ضاق بالفقر ، بل ان فصله من المعهد . قذف به الى معترك الحياة . دون مؤهل علمى أو فنى ، ولم يكن يجيد عملا يدويا يرتزق منه ، ولذلك لا بدلنا . والحال هذه . ان نتساءل : ما العمل الذى التحق به التجاني ؟

وكم كان يتقاضى فى الاسبوع اكبر شعراء السودان قاطبة ؟

عرفنا ان التجاني قد التحق بالعمل في الجريدة التجارية . وهو لم يزل طالبا ، وذلك منذ عام ١٩٣١ . على ادنى تقدير . وظل يعمل مصححا بها .

ويخيل الى انه لم يكن يتقاضى اول الامر الا اجرا رمزيا . على جهده فى التصحيح ، وانه لما ظل يعمل بملتقى النهرين حتى عام ١٩٣٣ ، لربما تقاضى اجرا أسبوعيا لا يجاوز خمسين قرشا .

وكان العمل بالجريدة التجارية وملتقى النهرين يوجب عليه الحضور الى الخرطوم ، فى الصباح الباكر ، على الا يعود الى منزله الا بعد الثالثة ظهرا .

ويبدو ان التجانى اكتسب شهرة فى مضمار تصحيح الصحف . لذلك فقد كلفه المؤرخ محمد عبد الرحيم ، بتصحيح مسودة الجزء الاول من كتابه « نفثات اليراع » ، الذى تم طبعه فى ١-٦-١٩٣٣ ، ولكن المؤلف لم يستلم من المطبعة نسخ الكتاب . لسبب أو آخر . وان قام بعد ذلك باصداره عام ١٩٣٦ بعد ان نقحه وزاد عليه ما شاء .

ولم يستمر التجانى فى عمله بملتقى النهرين ، لانه التحق بالعمل فى شركة سنجر (فرع امدرمان) . وكان يتقاضى اجرا اسبوعيا قدره اربعين قرشا .

وكان عمله هو تحصيل قيمة الماكينات من المشترين .

ورغم انك تجد اسم التجاني يوسف بشير في سجلات الشركة. الا انك لا تعثر على ملف خدمته ، فقد عبثت به ايدى الضياع. ولكن موظفي الشركة يرجحون انه عمل بها عام ١٩٣٣ لمدة لا تجاوز العام .

ولم استطع التحرى عما كان يقوم به التجاني خلال عام ١٩٣٤. ولذلك . يخيل الى ان التجاني . قد عانى من البطالة المباشرة تارة. ولمقنعة تارة اخرى ، وربما لجأ مرة اخرى الى العمل بملتقى النهرين ، ولم يكن حاله بها أسعد من حاله الاولى .

ثم التحق التجاني بجريدة النيل عام ١٩٣٥ في وظيفة مصحح. باجر اسبوعي لا يتجاوز خمسين قرشا . ولكنه لم يستمر كثيرا في وظيفته الاخيرة .

ويخيل الى ان البطالة قد ظللته بجناحيها مرة اخرى . لفترة غير قصيرة ، حتى التحق في منتصف سبتمبر ١٩٣٦ بمجلة امدرمان . التي اصدرها المؤرخ محمد عبد الرحيم . وعين التجاني محررا بها ، ولكن لم يقم التجاني الا بتحرير ستة اعداد فحسب. اذ اقاله صاحبها من وظيفته اعتبارا من ١٣-١٢-١٩٣٦ . ولعل مما حز في نفس شاعرنا ان يكتب عنه صاحب الجريدة في العدد السابع ما يلي :

(مدير هذه المجلة يعلن مع الاسف اقالة حضرات التجاني افندي يوسف بشير المحرر بها و ... الخ) . وهو الذي كتب عنه في صدر العدد الاول يصفه بانه شاعر وكاتب طار الصيت !

ويبدو لي ان اقالته الاخيرة من المجلة قد اثرت في نفسه مثلما أثر في نفسه فصله من المعهد . الامر الذي جعله يضيق ذرعا بالحياة ، في الواقع من الامر ، واذا اضفنا الى ذلك تاثير المرض عليه . ادركنا كم تالم شاعرنا المناضل وكم كافح ؟!

وذلك كله ، كان من الطبيعي ان استشعر التجاني بعالم من الفوارق بينه ، كرجل فقير ، وبين ابناء الطبقة الموسرة . وان لم يذكر لنا صراحة اسم شخص معين أو أسرة خاصة أو بيت من البيوتات الكبيرة .

وذلك الشعور كان ـ ولا يزال ـ يمثل مشاعر الملايين الكادحين من المواطنين بل انه عبر عما اعتلج ـ ولا يزال يعتلج ـ في صدور العمال والمزارعين والمهنيين .

انه شعور عدم الرضاء بالوضع الاقتصادي .

انه ارادة التغيير ، اى تغيير المجتمع الى افضل .

انه الامل في سبيل تحقيق عالم ، لا يحتاج فيه الانسان ، لكي يعمل طوال اليوم ، منذ بزوغ الشمس حتى مغيبها ، لمجردان يضمن السكن والاكل والملبس ، بل يكفيه العمل أقصر الوقت فحسب ، لكي يمارس في فراغه هواياته ويستمتع بحياته فكريا وروحيا وثقافيا . انه الامل في القضاء على استغلال الانسان للانسان . ولعل قصيدته « دنيا الفقير » ، تدل على انه لم يرغب في رسم لوحة لفقره وحده ، بل لفقر الملايين ، اذ ان واقعه الاقتصادي ، كان جزءا لا يتجزأ من واقع المجتمع المتخلف ، الذى يفتقد فيه الانسان الضرورات ، ويشبع بعض احتياجاته الضرورية بشق الانفس ، ولا يجد ضمانا له في ممارسة حياته ممارسة عادية او طبيعية . اذ يقول فيها :

تعالى معي زهرات الخريف الى الكوخ أفلت منه الربيع
تعالى نطر ثياب الفقير ونمسح مآسي غبر الربوع
بنفسي من هان حتى توا ضع في نفسه كل معنى رفيع
مشى خاشع الطرف رث الثيا ب كئيبا كثير مرائى الخنوع

تكلله حسرة في المصير ... وتسحقه خيبة في الضلوع
ماذا يقول : الهي الكفاف ... ويردفها بالبصير السميع
ويمسح في وجهه راحتيه ... ويفضي تقى او رضى اوخشوع
فيا أهة ملء دنيا الفقير ... ويا أنة ملء دنيا الوجيع
لأنت لدى الله اسمى وانبل ... في الارض من بسمات الخليع

ويصرخ التجانى من الفقر في قصيدة « ثورة » صرخة قوية ثائرة ، تعبر عن عدم رضائه بوضعه الاقتصادى وعدم رضائه ايضا بواقع الاقتصاد في بلاده . اذ يقول :

انها ثورة الحياة فمن للكون ... يحميه من قذائف رعن
لم اجد كالشباب يبسا مرا ... عيه ولا كالصبا اغر لعيني
يا بلادى وانت اضيق من رز ... قى مجالا ودون اخرات اذني
حسب قلبى من الاسى ماالاقى ... ملء جنبى من كلال وأين
وبحسبي من حاجة عوز يد ... فع نفسى الى فراق وبين

ولا نبالغ اذا قلنا ان التجانى قد ضاق بفقره ، وسوء حاله ، حتى كان يبلغ به اليأس ، في بعض الاحيان ، مبلغا عظيما ، كاد يدفعه الى التشاؤم العميق ، والاحساس بالضياع في الحياة .

وقصيدته في رثاء ابن اخته « محمد الامين » ، تنطوى على بعض ابيات تؤيد ذلك . وخاصة قوله :

قرأ الزمان عليك معنى ساميا
ورأى سرائر منك مثل سرائرى
فرماك في العهد البرىء بما رمى
حظى به ودهى جسيم خواطرى

لوددت انـــي في الطفولـة مـــائت
لو كنت اسمـــع بالشباب العاثـــر

ويفخر التجاني في بعض قصائده . مثل « دنياى » و« هوى وفقر » « وقلب من ذهب » و« يا صاحبى خلهم » . بأنه قد سما عن العالم المادى ، وانشغل بالجانب الروحي منه ، بل قد زهد فى الثراء او الجاه او المال ، وأنه رأى سعادته فى الفقر او القناعة وعدم الجري وراء الملذات الحسية . ولكنا نحسب ان ذلك لم يعد العزاء لنفسه بل العزاء للمحرومين امثاله . اذ تنطوي مقارنته بين دنياه ودنيا الثرى على احساس شديد مرير بفقره . وخاصة بالنسبة لمن غيره من ابناء المسالمة بفقره ، اذ يقول فى قصيدته « قلب من ذهب » :

لك قلبى من النضار وفى صد — راك جناته ودنيـا قصـــوره
وبجنبى خافق مـــن تـراب — ليس من تبره ولا من صخوره
يطفح الوجد والجمال بدنيـا — د ويغلى الحماس فى تاموره
لى من الفجر أربعة فوق ماتطلب — ه انـــت من طوافح نـــوره
لى دنيا الفنون والدجى والا — لهام من صدقه ومن مسحوره
اينا لو عدلـت يكتنـــز العـا — لم فى صدره وفى تفكـــيره
اينا يزحم الوجود جناحيه وتمـ — شى الحياة بين ضمـــيره ؟

ويبدو ان بعض الناس قد عاب عليه اهتمامه الشديد بالشعر، واستغراقه فى التفكير ، فانفجر ساخطا يقولهم فى قصيدته « دنياى » :

ما بى ثراؤك مـــن ذخـر ولا مـــال
فاستبق دنياك حسبى كنز آمالـــي

ما بى ان شقيت وما بى ان نعمت وما
بالقلب زهو الغنى أو رقة الحـــال
دنياى وهى من الدنيـــا عـــلى نفس
أثرى من التبر أو أسمى من المـال
وهبت للناس من دنيـــا مطامعهـم
ما عندها لى من نعمـــى واقبـــال
فليتركوا لى احلامـــى وما نسجت حو
لى من الضنك ان لم يرضهم حـالى
وهبتهم من لذاذاتى وصمت فلـــم
اطعم لذيـــذا ولم أفطر على حـــال
ولا غنيت ومـــا أبغـــى ولا رغبـت
دنياى فـــى وفـــرة منهـــا واقـــلال
وعشت أنعـم فى عدمى ويسعدنى
انى تخففـــت من امرى واثقالـــى
اولئـك الناس لـم افرق حقائقهـم
فما لهـم بـــى لا اهلـــى ولا آلى
جانبـت باطل ايامـــى وزهدنـــى
فيها خوادع مـــا يطفـــو من الآل

والفقير الجائع المحروم كان يفكر فى لقمة العيش ، قبل ان يفكر فى المباهج الاخرى للحياة ، ولكنه كان محروما من اشباع الجنس أيضا ، فتلاقى حرمان المعدة مع حرمان الشهوة ، فضاق شاعرنا بحرمانه ، ولكنه حاول ان يفلسف واقعه فى قصيدته « هوى وفقر » ، التى يقول فيها :

سما بالهوى فقرى ومن لك با! (م)
هوى سماوى معنى كله أبدا نبل
هوى. ساوقته النفس والشعر فانته
ى الى القلب واستولى متاوده العقل
وهبت له نعمى الحياة وزدته
ذخائر اسرار المفاتن من قبل
وهبت له الدنيا فاثرى ولم أهب
له التبر منها ان مشرعها ضحل
عجبت لها كم ذا اروح واغتدى
على ظمأ يروى سواى ويبتل
وما بى ما أفلت منها وانما
تخيرت من دنيا الصبابة ما يحلو
غفرت لها انى شقيت وانها
يصح بها مرضى النفوس واعتل
ولي في كنوز الروح سلوى وغنيـ (م)
ة بحسبى لا خلف لديها ولا مطل
وحسبي لا اثريت منها واننى
ليصرف نفسى عن نضاركم شغل

ولا يرضى التجانى عن نفسه ، لانه لم يرض عن واقعه المادى، ولذلك تستشعر مرارة الاسى الحزين فى قوله فى قصيدته « نفسى » :

هي قسطى من السماء فما اضيـ (م)
ع فى العالم الترابى قسطى

ولكن رغم فقر الشاعر ، فانه كان عفا أبى النفس ، لا يرضى

عن الذلة أو الخنوع او التذلل ، بل لم يطلب احساناً من احد .
كما كان عزوفا عن المدح بقصد الرد .

وقد قال في قصيدته « وحي المحامد » ، بمناسبة عودة الشيخ الازهري مفتي الديار السودانية سابقا :

ما الى الرفد قد مدحت ومـا مثل قناتي تلين من لمعانـــه
عمر مولاى ما اطبانـــي سحر المال يوما لرغبة في اختزانه
وانا المرء من عرفت ابـــاء وعزوفا عن ذله وهوانـــه

وعلى هذا ، لعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان شعر التجاني كان مـرآة لمجتمعه ، مرآة لفقره بل فقرنا .

والحق ان اغلب النقاد يجمعون على هذا الرأى .

يقول الاستاذ عبدالله الشيخ البشير في بحثه « ثلاث قضايا في شعر التجاني » (دراسات في شعر التجـاني ــ ص ٦٩) :
(عاش التجاني فقيرا ما في ذلك شك كغالبية الشعب السوداني حينذاك وليس في هذا ما يعيب وقد كان لهذا الفقر أثر واضح في شعره فهو كما سترى في بعض قصائده يضيق تارة بهـذا الفقر وتارة يفلسفه ويفتخر به ويشيد بعظمته ويشن حملات عنيفة على الثراء والمثرين والناقد يلاحظ ان القصائد التـــي يضيق به فيها بل لا تكاد تجد قصيدة يتبرم بها من الفقر صراحة الا قصيدة « ثورة » وابيات قليلة موزعة هنا وهناك)

ولقد عقب الناقد صلاح احمد ابراهيم على قصيدة التجاني « دنيا الفقير » ، التي سبق ذكرها ، تعقيبا عميقـا بسيطا . اذ قال في بحثه « الجرح والقوس »
(دراسات في شعر التجاني ــ ص ٤٤) :

(وهل هذه الا صورة الفقير السوداني او قل صورة السوداني، أنا وانت وجاري وجارك ...)

واستطرد الناقد يقول :

(اذن عليه ان يدبر عيشه في الحياة وان يضرب في فجاجها طلبا للرزق فماذا لقى ؟ خيبة اخرى ... فبلاده اضيق من رزقه مجالا ودون اخرات اذنه اي ثقوبها ، حتى ليدفعه العوز الى طلب الفراق والبين ولعله يقصد الموت ــ وهذا انتحار في الخيال . ولم يكن له استعداد للكفاح ومغالبة متطلبات الحياة ..)

ولم يلتفت كل من الدكتور عبد المجيد عابدين والاستاذ عز الدين الامين عن أثر الفقر على شعر التجاني بل على الشعر السوداني عموما .

والحق انه اضحى من العسير على الناقد من النصف الاخير من القرن العشرين، مهما كان اتجاهه الادبي ، تجاهل العامل الاقتصادي واثره عى الاديب .

وعلى هذا ، فانه رغم اتفاقنا مع النقاد على أثر الفقر على شعر التجاني ، الا اننا نؤكد دائما ان حرمان التجاني اى فقره ، كان هو المصدر الاول لقلقه ، وان الطبيعة التي احاطت به ، هي مصدر من مصادر قلقه في الاعتبار الثاني ، وان الثقافة التي لقحت تفكيره ، ساهمت الى حد كبير في استعمال نيران قلقه .

وقد يكون لكل من الاسباب المذكورة اثر مماثل للآخر ،ولكن وان كنت اعتقد في تشابك الاسباب وتعقيدها ، الا انني ارجح العامل الاقتصادي كسبب من اسباب قلق التجاني ، مثل ملايين السكان في السودان ، وفي غيره من البلدان المتخلفة .

وبعبارة اخرى ، فان الفقر هو مفتاح شعر التجاني ،ذلك لانه

هو سبب قلقه . الذى يستظهره فى اكثر قصائده ، وان ذلك القلق قد لازمه حتى فى شعر الطبيعة والحب ، وانه هو الذى جعله يتردد بين الايمان بالحياة والشك فيها ، وبين الايمان بالله والشك فيما وراء الطبيعة ، وهو موضوع الفصل القادم .

الفصل السابع

بين الايمان والشك

يعيش الطفل حتى السابعة من عمره تقريبا . وهو لا يكاد يهتم الا باشباع حاجاته الضرورية من مأكل وملبس ومشرب ، يصرخ اذا عضه الجوع ، ويبكى ان تشف ريقه ، ويزمجر اذا اخذت منه لعبته ، او حرمته من السير في طريق معين .

وعلى هذا ، يمكن ان يقال انه يسير بغرائزه ، وما يكتسب من عادات قليلة نتيجة التربية التى يحظى بها من والديه او اهله او جيرانه .

وينمو الطفل ما بين السابعة والرابعة عشر ، وهو يكاد يقلد من هم اكبر منه سنا . حتى اذا ادرك البلوغ في الرابعة عشرة او السادسة عشرة تقريبا . تغيرت نظرته بعض الشيء الى الدنيا . واحس ان لشخصيته وزنا يجب ان يظهره ، ويؤكده للمجتمع الذى يعيش فيه .

وفي عهد المراهقة يحس المراهق بأنه فى حاجة الى غذاء جسمه وشهواته وغرائزه ، والى اشباع عواطفه ونفسه وروحه .

ولذلك ، كان من الطبيعى ان يدور بذهن التجانى ما يدور بذهن المراهق من اسئلة تتعلق بالوجود وتفسيره بل مدى ارادة الفرد فى تغييره .

وتردد التجانى بين الشك واليقين سببه الرئيسى هو الحرمان الآخر .

ونحن لانمل من تكرار القول ، بان سبب حيرة التجاني ، كان الفقر ، في الاعتبار الاول ، ذلك لاننا نعتقد ان الشاعر الاصيل، الذي يعتبر شعره مرآة لمجتمعه ، يجب ان يعبر عما يقاسي شعبه من فقر وجهل ومرض ، في جميع مراحل حياته ، ومهما بلغ به العمر ، ما دام مستوى المعيشة في بلادنا، لا يزال منخفضا، وما زلنا نشكو حتى الآن من ذلك الثالوث البغيض ، ذلك لان شك التجاني لم يكن شكا في الموت او فيما بعد الموت او فيما وراء الطبيعة فحسب ، بل كان شكا في الحياة ذاتها ، وضيقا بمشكلاتها ومآسيها ، وحنقا من ملالها وتكرارها وسخرية بالتفاهات اليومية ، وامتعاضا من دوران الارض حول الشمس، دون ان تأتي بجديد عليه او على بني وطنه ، وقلقا مما يخبىء له الغد من مفاجئات ، والليالي من الزمان حبالى ، كما يقولون .

ولذلك ، لم يكن شك التجاني أمرا ذاتيا ، بل له ظروفه الموضوعية . وليس هو ظاهرة عارضة بل ظاهرة عامة .

ويقابل أو يماثل مشكلة الحياة تماما ، مشكلة الموت أيضا . وان شئت فقل مشكلة الصراع بين الحياة والموت . وبين الخلود والفناء .

ولا شك انها مشكلة أقلقت بال الانسان ، من كل مجتمع ، وكل عصر ، بل لا تزال تقلق وتشغل عقله في البلدان النامية – مثل بلادنا – بأكثر مما تقلقه في البلاد المتقدمة في الحضارة ، لاسباب كثيرة منها ، ان الانسان في البلد المتخلف او النامي ، كثير الفراغ ، الامر الذي يسمح له بالتفكير في مشكلة الموت مرارا وتكرارا ، وانه معرض للاصابة بالامراض ، نتيجة سوء التغذية وعدم اتخاذه اجراءات الوقاية اللازمة من الامراض المعدية او الفتاكة،

وذلك فضلا عن بعض العادات والتقاليد ، التي تجعل من تكرار الزيارة لبيوت المآتم أو القبور ، واجبا اجتماعيا ، الأمر الذي يساعد على انشغال الذهن بقضية الموت كاحدى القضايا الكبرى في حياة الانسان .

واذا اضفنا الى ذلك ، ما عرفنا من ضعف صحة التجاني وارهاقه في العمل ، وقرب منزله من المقابر التي تقع في الخلاء المجاور ، حيث يتردد عليها الاحداث بمناسبة وغير مناسبة ، وحيث كان ولا يزال يروق لكثير من أبناء الاحياء المجاورة ، لعب الكرة او الصيد أو « التشريك » للطير ، فاننا نستطيع القول ، بان تفكير التجاني في الموت ، كان امرا طبيعيا ، يتوافق مع البيئة والظروف المحيطة به ، من ناحية ، ويتوافق مع ما تلقاه في المعهد من دروس ، وما قرأه في الكتب غير المقررة من فلسفة ، من ناحية اخرى .

ولئن قيل ان التجاني كان مفرطا في حساسيته بالفقر والملل من الحياة ، فاننا ننكر ذلك ، اذ لم يكن شاعرنا يتفرد بذلك ، بل كانت الشكوك ــ ولا تزال ــ عامة بين الادباء والشعراء ، وغيرهم من المواطنين .

ومن يستقرىء المجلات التي صدرت في العقدين الثالث والرابع من هذا القرن ، لا يصعب عليه استظهار سمات الادلة من المقالات والقصائد .

ولعله يكفي ــ لضيق المقام ــ ان نذكر ما جاء في مقال « حياة السآمة والملل واثرها في تأخير الفنون والآداب » ، المنشور في العدد ١٩ بمجلة «النهضة السودانية» ، الصادر بتاريخ ٢٧ــ٢ــ١٩٣٢ ، بقلم الاستاذ محمد أحمد محجوب :

(ليس بين شبابنا المثقف المستنير من لا يشعر بفداحة الحياة

وثقلها ويجد انقباضا في نفسه وكراهة لعيشه واصحابه الذين يجتمع بهم ويود لو تغيرت هذه الحال وتبدلت بأحسن منها وليس بينهم من لا يمس هذا التكرار الممل وهذا القبح الكريه ويود لو تنوعت صور الحيـاة وأخذت من الاشكال والقوالب غـير هذا المأخذ ..)

وان نقتطف أيضا بعض ما جاء في مقال آخر بمجلة النهضة (عدد ٢٤ ـ ١٣ـ٢ـ١٩٣٢) . بقلم « المأمون » . الذي وصف فيه الكاتب (حسن المأمون) . حياة الملال في غـير الخرطـوم . فكتب يخاطب صديقا له :

(لا بأس من جعلك على حقيقة تامة من سيرنا اليوم في حياتنا البائسة المكررة .

نذهب الى المكتب في الساعة السادسة صباحا ونحن عندي اشبه « ببائعات اللبن » ، ثم نعود الى المنزل في الثامنة لتناول الافطار ، ثم نرجع كذلك في التاسعة فنعود الى المنزل عند الساعة الواحدة بعد الظهر . ثم نعود تلك الكرة في الثالثة فنرجع للمرة الاخيرة في الخامسة ...

هكذا الحياة عندنا مملة الى حد بعيد .

حياة سأمة وتكرار .

فالواحد منا لا يدرى كيف يسير ومـا يكون دليله اثناء هذا المسير .

فنحن اشبه على الاقل بالانسان الاصطناعي تحركه بعض الازرار الكهربائية !!

وعلى الاكثر فان جل زمننا يضيع بين المنزل والمكتب .

ولا نجيد معرفة سواهما فنحن أشبه في نظري« بحمير العياشة»

حيث تسرع الى كلا المكانين ـ الحانوت والمنزل ولا تقوى في سيرها على سواهما .)

واذا أخذنا في الاعتبار ، ان الاستعمار الانجليزي كان قد أمسك بخناق البلاد وحده ، منذ ١٩٢٤ ، بعد دحر الثورة، وطرد الجيش المصري ، وان بعض المثقفين في السودان، كبعض المثقفين في مصر، قد استكانوا للوظائف التي حظوا بها ، كما تهاون بعض منهم مع الاستعمار ، وتسربت روح الانتهازية والمنفعة غير المشروعة الى ضعاف النفوس من المتعلمين . حتى ظهرت آثار ذلك جليا . في معاهدة ١٩٣٦ ، التي لم تكن حلا للقضية الوطنية في السودان أو مصر .

واذا أخذنا في الاعتبار أيضا ان التفكير العلمي بدأ يبزغ في الافق السوداني بين المتعلمين من أبناء الطبقة الفقيرة، وان الوعي الوطني شرع يتسرب الى معظم المواطنين ، فاننا نرى ان الاوضاع الاقتصادية والسياسية ، والحال هذه ، كانت مصدرا من مصادر عدم وضوح الرؤية في ذهن التجاني . من ناحية . كما كانت مصدرا لقلقه وشكه ، من ناحية اخرى .

بل كانت تلك الظروف الموضوعية مصدرا لقلق كثير من المثقفين ، ولذلك وان يتضح تمردهم وثورتهم على الاوضاع الاقتصادية والسياسية في النثر ، فقد كان الشعر مجالا واضحا للتعبير عن رفضهم للمجتمع الذي عاشوا فيه .

ولنضرب لذلك مثلا لشاعرين هما توفيق احمد البكري ، الذي كان من أوائل المثقفين الذين هاجروا الى مصر لطلب المزيد من العلم ، ولكن القلق يطارده وهو هناك ـ فترة من الزمن ـ على ما يبين من هذه القصيدة الحزينة التي نشرها في مجلة ابولو في يناير ١٩٣٣ :

قد بكينا على هوى وأمـــان عالجتهـا الاقدار نشرا وطيا
وأرى عالق الرجاء بكفـــي هباء لم أنل منـــه شيـــا
آه لو تغسل الدموع جراحا آه لو ينفع البكـــاء شجيا
لفها الدهـــر في حنادس يأس لا أرى للمنى بصيصا مضيـا
وامد الكفيف أحســب اني واجد في الظلام منها خبيـــا
واخال الاشباح تجري أمامي صورا في مناي خلقا زريـــا
ظلمات يحجبن وهم خيالـي ان يرى بينها طريقـا سويا
اين.. لا أين.. لليقين سبيل؟ قد ضللت الصواب شكا ورعيا
وهواي الطهور لم يعد نفسي من خيبـة الصدود فتيـــا
والاماكن الحسان كالنغم الحلـــو اذا ضاع في الرياح ذريـا
فاملئي كأسك الدهاق وهاتيهـــا اروى بها فـؤادا صديـا
واتركي في قرارهـــا قبلات خالـد بردهن في شفتيـــا
فاذا الموت ضمنـــي في فناء رحمة ما لقيت روحا وريـا
كلما رمت للهنـــاء شرابـــا سقطت كأس نشوتي في يديا

والشاعر الثاني هو المرحوم الهادي عثمان العرابي ، الذي مر بنا ذكره كثيرا . وله قصائد كثيرة لا تقل روعة عن شعر التجاني ، كما تتفق معه في كونها علاجا لمشاكل الحياة وما بعد الموت ، يتضح منها تردده بين الشك واليقين ، كما تدل على ذلك هذه الابيات :

انـا كافـر باللـــه لكـ ـن مؤمـــن بكتابـــه
أنـا مؤمن باللـــه لكـ ـن كافـــر بجنابـــه
هـــذه كلمـــات فـــذ نابـــه
الكفـــر والايمـــان يصط رعـــان بـين ثيابـه

والقلق الذي ساور هؤلاء الشعراء والكتاب في السودان ، لامس قلوب كثير من شعراء العالم العربي مثل محمد عبد المعطي الهمشري

وابي القاسم الشابي وايليا ابو ماضي . وما قصائدهم المعروفة « شاطىء الاعراف » و « في ظلال وادى الموت » و « الطلاسم » ، الا أمثلة على انتشار الفكر الفلسفي بين شعراء العربية قبل الحرب العالمية الثانية ، اذ كانت رؤى المذاهب السياسية والافكار الاقتصادية والمبادىء الاشتراكية ، غير واضحة في اذهان كثير من الشعراء والكتاب ، اذ لم تتضح تلك الرؤى والمبادىء الا بعد تلك الحرب ، لما تراخت قبضات الاستعمار ، واضحت الصحف مجالا للمعارك السياسية والمذهبية. وانتشر الوعي بين المواطنين. ومن ثمة ارتفع لواء الشعر الحديث او المطلق او الحر ، لكي يتسع للتعبير عن افكار سياسية واقتصادية ، قد تضيق بها الاشكال القديمة للشعر .

وعلى الرغم من ان النقاد قد يختلفون في سبب أو اسباب قلق التجاني ، الا ان جمهرتهم تميل الى القول بان التجاني كان يتردد بين الشك واليقين ، حتى آخر حياته .

ويقول الدكتور عبد المجيد عابدين ، في هذا المعنى ، في كتابه « التجاني شاعر الحب والجمال » :

(ان شاعرنا ظل مترددا بين عقله وروحه او بين شكه ويقينه. وليس من اليسير ان نتبين من شعره على اي الحالين قد استقر . واذا كان التجاني قد عبر هنا عن حيرة الشباب التي وصفها علماء النفس ، فالاقرب ان تكون قد ظلت مع التجاني الى آخر ايامه مترددا بين طرفيها . ولو عاش التجاني وتجاوز بعمره مرحلة الشباب لكان في مقدورنا أن نتبين على اي الحالين استقر التجاني بعد ان قطع مرحلة الحيرة عند الشباب » .

وهذا الرأي الذي انتهى اليه الدكتور عابدين . ونتفق معه فيه . يخالف الى حد كبير . رأي كل من الاستاذ محمد محمد علي.

الذي يرجح ان مذهب الشاعر كان هو الشك . كما يخالف أيضا رأي الاستاذ عبد الله الشيخ البشير الذي يرى ان فلسفة التجاني قد مرت باربعه اطوار أنتهت به الى اليقين والايمان العميق .

ففي بحث عنوانه «وحدة الوجود» (دراسات في شعر التجاني). تناول الناقد محمد محمد علي فلسفة التجاني بالبحث الدقيق العميق ، وانتهى الى القول :

(لهذا كله فانى أرى ان هذه القصيدة (يعني الصوفي المعذب) تمثل ما انتهى اليه أمر الشاعر من جهة الاعتقاد . فاذا اعتبرنا هذا واضفنا اليه ما رأينا في مقطوعاته «يؤلمني شكي» و « ودعت أمس يقيني » و « الصبي العابد » و «حيرة» وبيتي الشك في « الله » . لم يكن امامنا ما يمنعنا من الجزم بان مذهب الشاعر هو الشك لا وحدة الوجود .

وهذا الشك لم ينتقل اليه من وحدة الوجود . بل انتقل اليه من الايمان بالله كما يصوره القرآن . وكما يصوره المتكلمون .)

ظاهر ان الاستاذ محمد محمد علي ذهب الى ابعد مما ذهب اليه الدكتور عابدين ، اذ انه عزا الاشعار التي يتضح فيها الايمان الراسخ وضوحا بينا الى تغلب النزعة الدينية . في بعض الحالات فحسب . فضلا عما كان من آثر للمرض عليه . مما اضعف صحته . وجعله أميل الى التسليم بقضاء الله وقدره . وخاصة في آخر قصائده « فاحتفظها ذكرى » .

أما الاستاذ عبدالله الشيخ البشير فيرى أن عقيدة التجانى قد مرت باربعة اطوار . اذ كان في الطور الاول مؤمنا ايمانا تقليديا هادئا نتيجة تاثره ببيئته المسلمة المتصوفة . ونتيجـة العرف أيضا . ولكن ــ في الطور الثاني ــ تزعزع ايمانه نتيجة اطلاعه على كتب الفلاسفة . واستدل على رأيه ذلك بقصيدتي « قلب

الخيسوف » و « انبياء الحقيقة » .

« والطور الثالث هو طور الشك المجتاح الذي امتحن فيه الشاعر أعسر امتحان في دينه وتوحيده ومعبوده » .

ويستدل الناقد على رأيه بقصائد كثيرة منها « ودعت أمس يقيني » و « يؤلمني شكي » و « الصبي العابد » و « حيرة » .

ثم استطرد الناقد ليقول :

(وهكذا مرت عقيدته بطور انتقال عانت منه نفسه جذبا مريعا بين قوتين متجاذبتين بين الشك واليقين يظهر ذلك من قصيدته « الصوفي المعذب » وهي عندي تمثل هذا الطور الانتقالي او بداية الطور الرابع فالشاعر فيها موزع المشاعر تارة هو صوفي يتأمل في دقائق الكون ناملا قلبيا فيه كثير من المجاهدة والعناء .. وتارة نجده متوترا يشكو ظلام الروح وغائلة الشك وحرمان « المشاهدة » ... وفي هذه القصيدة يخطو خطوات جادة في طريق اليقين بما يبذل من تأملات قلبية صادقة يحاول الوصول من خلالها الى مرفأ امين . وهذه التأملات وان لم تفرغ من قلبه بذور الشك تماما الا انها كانت نقطة انطلاق هامة لروحه نحو الايمان الكامل الذي نجده في قصيدته « الله » .)

ورغم وجاهة الرأي المتقدم . الا انه يفتقد السند والدليل ، من ناحية معرفة تواريخ كل قصيدة على حدة ، وهو ما لم يوفق الناقد في العثور عليه . مثلما لم اوفق الا في معرفة البعض منها فحسب ، كما ان مما يؤخذ عليه ، هو أن القصيدة الواحدة هي التي تتضمن « جذبا مريعا » على حد تعبيره ، وعلى ما يتضح مما يلي أيضا .

أما وقد استعرضنا اسباب قلق التجاني ، والتحقق من تردده بين اليقين والشك أو بين الشك واليقين . فاننا نود ان نقتطف

للقارىء بعض الابيات من شتى قصائده ، التي يستظهر فيها ذلك القلق ، من ناحية ، ولكي يستطيع القارىء تفسير القصائد الاخرى ، على ذلك الضوء ، من ناحية اخرى .

لفي قصيدته « الله » ، وهي اولى قصائد الديوان ، بعد « اشراقه » ، يصرخ التجاني :

برح الشك بالفؤاد فآمنت
ولكن في ريبة أو رياء
لم أيقنت مؤمنا ثم ما أد (م)
ري وكم ذا لديك من لأواء
علقتني من ظلمة الطين ما
أقعدني عن رحابك البيضاء

ريتول في « انبياء الحقيقة » :

ايها العقل أنت يا حيرة العقل
ولما تكن بنفسك أجدر
با قوي تهدم الحياة وتبنيـ
ها وتذرو الورى هباء وعثير
أأله في الارض . انت أم الشيـ (م)
طان ينهي في العالمين ويأمر
وجنون انت ام انت عقل وموجو
د حقيق ام انت وهم مصور ؟!

رياسى التجاني في مرارة حزينا بائسا اذ يقول في « ودعت من يقيني » :

نضى بك العقل لم تسعد به أثرا
واعتادك الشك اذ ضاقت بك السوح

ودعت أمس يقينـــي في مـــــوأدة
غبـــــراء تعصف في اعماقها الريح

ويحترق التجاني حزنا في « الصبي العابد » . اذ يقول :

ومضـــى الشك باليقـــين فلله
فـــؤاد تأكلتـــه الرزايـــا

ويبلع التجاني ويتوجع اذ يقول في « يؤلمني شكي » :

أشك يؤلمنـــي شكي وابحث عن
برد اليقـــين فيفنـــى فيـــه مجهودي
أشك لا عـــن رضا منـــي ويقتلني
شكـــي ويذبل من وسواسه عودي
الله لـــي ولصرح الدين مـــن ريب
مجنونة الرأي ثارت حول معبودي
ان راوغتنـــي في نسكـــي فكـــم
ولجت بي المخاطر في ديني وتوحيدي

ويعبر الشاعر عن حيرته . في قصيدته « حيرة » مرة اخرى . اذ يقول :

بـين اثنـين أســـر أم أبكـــي
قبس اليقـين وجـذوة الشـك
في النفس حاجـــات وان خفيـــت
فلعلهـا ضرب مـــن السنـوك
والعقل ينصب مـــن حبائلـــه
نصبـــا معاقدهـا مـن الشـوك

انا من فـــوادح ما تجر يـــدي
أبـدا قنيصته ذلك الحبـك
مـــا زلت أقطعـه ويعقدنـــي
والمـرء بـين قلاقــل ربــك

ويشرح الشاعر ما لاقاه من عذاب أيضا من قصيدته « الصوفي المعذب » ، التي يقول فيها :

انا وحـــدي كنت استجلي من العالـــم همســه
اسمـــع الخطرة في الذر واستبطن حســه
واضطراب النور في خفقته اسمـــع جرســه
رب سبحانـك ان الكون لا يقـــدر نفسـه
صفـت مـن نارك جنيــه ومـــن نـــورك انسه
يساقط دونـــي يـا نعيمـا مشرق الصفحة
نضـرت في قربـــه نفسي وزايلـت غضونـي
فمشت غائلـــة الشــ(م) ك الى فجـــر يقينـي
قضت اللـذة فاسترجع ـهـــا لمـــح ظنونـي

ويصف شاعرنا نفسه في قصيدته « نفس » :

الله ايتهـــا الوديعـــ ـــة ان تشط بـك الظنون
الفجـر ملتهب الجـوا نح والدجى شرس حرون
يتزاحمـــان اليـــك في و لع وتستبق القـرون

ويقول ايضا في قصيدته « نفسي » :

هي نفسي اشراقةمن سماء اللـــه تحبـو مع القرون وتبطي
ويح نفسي تنام من دونها ألانفس شوطا وما تهـــم بشـــوط
هي قسطي من السماء فما اضيـع في العالم الترابـي قسطـي

ويصف قلبه . وما انطوى عليه من ضياع وقلق . فيقول :

يـ قلب لا كالقلـــوب يدفـــق منـــك الالم
ترنو وراء الغيوب عينـــا تحس العـــدم
ينثنى منـــك الغروب وتستفيض الظلم

واكثر قصائد الديوان في التعبير ــ في نظري ــ عن حاله الذي تردد بين الايمان والشك . قصيدته « طفل » ، التي يقول فيها :

سبحانه كـــم الهـــم العقو ل جنونا وحمـــق
يشك مـــا يحيـــا وان اشد لغى عـــلى الموت فـــرق
وكـــم ــ تعالى ــ عميـــت عنه قلوب من خلـــق
سبحانـــــه قد وضحت آثـــاره فينـــــا ودق
رمى بهذا الطفـــــل في الار ض ومـــــن ثـــــم رزق
رمى به في موكـــب الدنيـــا مشـــــالا للقلـــق

التصوف في شعره :

ليس ثمة شك في ان التجاني قد تأثر باحكام التصوف الاسلامي، نتيجة فقره وعفة نفسه وقراءاته كتب التصوف ، على ما سبق ان رأينا ولكن تأثره بذلك كان عارضا ومؤقتا ، اذ سرعان ما كان ينفلت منه ، لكي يتمرد ويشكو ويتعذب ويسخر بل ويثور. وهي مشاعر تتجافى مع روح التصوف .

وشهرته بالتصوف ، جاءته ــ فيما يبدو لي ــ نتيجة تسميته احدى قصائده « الصوفي المعذب » ، وقد انطوت على فلسفـــة وتصوف واحاسيس ومشاعر كثيرة . ولذلك وقف لديها النقـــاد وقفة طويلة ، فذهب بعضهم الى القول انها تدل على تصوفه ، مثل

الدكتور احمد غلوش . الذي قال انها عبارة عن نظرات وشطحات صوفية ، وذهب الاستاذ عبدالله الشيخ البشير على انها بداية ايمان الشاعر في مرحلته الاخيرة التي انتهى اليها ، وذهب الاستاذ محمد محمد علي، على انها تدل على شكه. ويرى الدكتور عابدين، انها كأكثر قصائده تتردد بين الشك واليقين . على ما سبق شرحه .

ومهما يكن من أمر ، فاننا نعتقد ان التجاني لم يكن راضيا عن فقره ، بل لم يكن راضيا عن زهده ، والفقر والزهد هما عماد التصوف .

وفضلا عن ذلك . فلم يكن التجاني ممن يسلمون بأمور الدين تسليما مطلقا . بل حاول جهده تفسير العالم من ناحية . وتغييره من ناحية اخرى ، ولذلك لم يكن التجاني صوفيا .

وعلى الرغم من ان بعض مقالات التجاني تدل على انه كان يعتقد ان الشعر موهبة او نتيجة الهام او امور خفية، وأن بعض قصائده وبعض ابيات متفرقة هنا وهناك في ديوانه ، تدل على ايمان عميق مطلق ، الا ان ذلك لا يغير من حكمنا على عموم شعره ، بأنه يتردد بين الشك واليقين ، اذ ان التجاني لم يكن متصوفا ، وان كان ذا نزعة صوفية تتجلى في قليل من شعره ، احيانا نادرة .

الفصل الثامن

الطبيعة فى شعره

عاش التجاني طوال حياته بامدرمان ، ولذلك كان من الطبيعي ان يضيق بالشمس المتقدة اللاهبة فى اكثر أيام السنة . كما يضيق بالاشجار غير المثمرة في منزله . أو الهبوب عندما يثور .

ولذلك ، لم يكن امامه للاستمتاع بجمال الطبيعة ، غير ان يذهب الى شاطىء النيل حينا ، والى جزيرة توتى حينا آخر ، او ان ينطلق فى الخلاء المجاور لمنزله ، ليلمح عن بعد جبال كررى او بعض التلال الاخرى ، ولعله استطاع ان يشهد فيه الشمس وهى تختفى رويدا رويدا وراء الافق ، أو البدر المنير الساطع ، أو لربما كان يصحو مبكرا لكي يجول فى ذلك الخلاء ، عبر المقابر والاشجار ، منتشيا بنسمات الصباح المنعشة الرقيقة ، مستمعا لشقشقة الطيور الغادية الرائحة او لهديل اليمام الحزين .

وعلى هذا ، كان من الطبيعي ، الا تكون ثمة صلة عميقة بين التجاني ، او ان شئت فقل الشاعر السوداني ـ كالعربي عموما ـ وبين الطبيعة ، ولهذا لا غرابة في أن يتبلور حب التجاني للطبيعة في مشاهد ومناظر بعينها ، مثل القمر والنيل وجزيرة توتى في الصباح ، تلك التى يجد فى اضوائها او ظلالها او جنباتها الحنان والسلوى والراحة . ويبدو لى ان اضافة كلمتى « فى الصباح » الى توتى ، فى قصيدته المعروفة ، تدل على انه قصد الى وصفها فى وقت معين : هو الصباح ، لا وقت الظهيرة مثلا ، عندما تنقلب الطبيعة الرحيمة الى وحش لايرحم فى كثير من الاحيان .

لذلك. فان شعر التجانى فى الطبيعة ، وان لم يضف جديدا على الشعر العربى ، بل يقصر عن السمو الى ما وصله اليه شعر الهجريين مثلا . اولئك الذين حاول التجانى ان يترسم خطاهم فى الاحساس بوحدة الطبيعة احساسا يجعل للانسان صلةحميمة عميقة بكل مظهر من مظاهرها ، الا ان التجانى استطاع ان يمزج احساسه بمظاهر الطبيعة مزجا انسانيا رائعا ، ولذا كانت مجالا لتأملاته وافكاره الفلسفية ومواطف حبه وشهوتهواحزانه وآلامه .

ولنحاول جهدنا ان ندلل على ذلك بمقتطفات من نثره وشعره.

البدر والنجوم :

عندما يتمدد ابن العشرين المراهق ، على العنقريب، فى ساعة الظهيرة ، ويتقلب على ظهره ، ثم بطنه ، ثم يتقلب مرات عدة ، فانه لا يجد مايشغله فى الغرفة او الصالة . فان الاثاث لا يعدو ان يكون بعض العناقريب ودولابا او صندوقا وشماعة تعلقفيها اللابس ، او لربمامسامير متفرقة مدقوقة على الحائط .

وعندما كان التجانى يمعن النظر فى الارض ، لابد انه وجد رمالا ناعمة ، وذرات دقيقة من التراب ، وحصى يختلط برمال الغرفة . بل ربما عاين حجرا او احجارا كثيرة .

وانجال ببصره مليا . لمح نملة ماشية ، واخرى جارية. وثالثة وهي تحمل ذرة من طعام او فتات من حشرة صغيرة أو ركام من القش المتناثر من الزبالة .

وعندما يتمدد المراهق، على العنقريب ، بعد مغيب الشمس ار فى الليل، لم يجد بدا ــ بل قد لا يجد كثير من المواطنينالذين تظلهم نفس السماء ــ الا التطلع للسماء .

لقد حدق لعله يلمح اول نجم تمكن رؤيته فى القبة الزرقاء

فيطمئن لرؤياه . او يرى النجوم تنتشر في صفحة السماء ، لينتقل ناظريه بين نجم وآخر .

وعندما كان يعلم ان اليوم مطلع الشهر ، فلا بد له من الاحتفال بمطلع الهلال الوليد، مترقبا اياه ليلة بعد اخرى . وهو يزداد نموا ولمعانا يوما بعد يوم ، حتى يكتمل بدرا .

والبدر في نظره احلى وجه للرؤية .

انه المقابل لاضواء الشمس اللاهبة المحرقة في صيفنا .

وبينما يكون الجو بالليل شاعريا يدعو للمتعة والراحة اذا بالجو في الصيف . يدعو للقلق والزهد واثارة المشاعر والاعصاب .

ويظل ذلك الانسان ـ أو ان شئت فقل التجاني ـ يراقب البدر لم يعود الى النقصان. وينقل عينيه بينه وبين النجوم الاخرى. ويراه وهو يسير ويسير أو يدور ويدور او وهو يخترق حجب السماء او سحبها البيضاء او الدكناء او الزرقاء ، وكأنه مشدود الى السماء برابطة خفية لا يدرك كنهها ، ولكنه يتأملها . حتى يمل من التأمل ، او حتى يدركه النعاس ، فيغيب في عالم الاحلام.

هذه الروابط المادية هي مصدر ومظهر للقلق معا ، وللاعجاب أيضا .

واعجاب التجاني بالبدر تجده ظاهرا في كل من نثره وشعره.

وهو يقول في مقاله « القمر والزهر واثرهما في الشعر العربي » (ام درمان ـ العدد الثامن) :

(ذهبت والبدر ـ وقد كانت هذه ليلته الرابعة عشرة ـ يتحدى الشمس بما يفيء علينا من نور وظلال ولكن اى نور مما يتطرى به القلب ويندى به الحس ...

وألهتني طلعة البدر وروعة الزهر وتزاويته واصباغه عما

امضى له من شأن . فاذا انا احلم وافيق ولكن كما يفيق المسحور وأهنأ بهذا الحلم والذه الوانا من اللذة التي ما ذكرت اني مفارقها الى لقية اخرى الا وامتلأت نفسي لها الوانا من الحسرة والالم لان داري ليست مما تنبت الزهر وان اطلعت القمر !....)

وفي قصيدته « فجر في صحراء » يقول مأخوذا أو كالمأخوذ بالقمر :

أملأ الروح من سنا قدسي ... مبهم كالرؤى وديع رضي
قمري كانما سكب البد ... ر عليه من فيضه القمري
واغمر القلب من مفاض من النو ... ر وضيء جم الندى عبقري
عجبا للجلال والحسن ماجا ... في اطاريسن فاتر وقوى
ينسجان الهوى من الفجر بررا ... علويا لشاعر علوى
صاح من روحه وكبر في اعما ... ق دنياه صارخا كالصبي :
أو هذا الجمال يا رب هذا السحر من أجل ذلك الآدمي؟

وفي قصيدته « نفس » يناجي النجم وهو يقظان من اجل شعبه :

دع نفسي تنام من دونها الانف ... س شوطا وما تهم بشوط
انا والنجم ساهران نعد الصب ... ح خيطا من الشعاع لخيط
كم صباح نسجته انا والنجم ... وارسلت شمسه من محطى
قلت سيري على اسرة قومي ... واستحري على مضاجع رهطى
انا جراءهم سهرت ليستغشوا ... ومن اجلهم أصيب وأخطى!!

النيل :

ظل التجاني يركب العربة مع المرحوم سليمان داود منديل ، اثناء ذهابهما الى مكاتب « الجريدة التجارية » . لما كان يعمل

مصبحا بها . ويركب الترام اثناء عمله بجريدة النيل ومجلة ام درمان ، كما اعتاد الذهاب الى ابى روف للجلوس بشاطىء النيل ليلا ، او لزيارة استاذه ابى بكر عليم او اصدقائه هناك .

ويخيل الى أن لم يكن للتجانى ، والحال هذه ، صاحب غير النيل . واخاله كان يجلس في العربة او الترام ساهما شاخصا محدقا في امواج النيل الفضية او الزرقاء ، حتى تداعبه الرؤى فى يقظته أو أحلامه ، كما انه لم يكن يجلس بجانب النيل الا حبا فيه وتقديسا له .

ولما كان النيل قد ارتبط فى مخيلته ، بذكرى الشقيقة مصر . وأمله فى نهل الثقافة منها ، فقد كانت مشاعره تجاهه . لاتكاد تنفصم عن آماله الذاتية ، وكانت رؤاه الخاصة ، لا تكاد تنفصم عن رؤى الجماعة التي عاش بين ظهرانيها . ولذلك . كان حب الطبيعة ينطوى على حب الوطن . ليس للسودان فحسب . بل لكل بلد عربى .

ولقد تعبد التجاني في محراب النيل تعبد الابن المخلص . اذ قال في قصيدته « محراب النيل » :

انت يا نيل يا سليل الفراديس ... نبيل موفق فى مسابك
ملء اوفاضك الجلال فمرحى ... بالجلال المفيض من انسابك
حضنتك الاملاك فى جنة الخلـ ... ـد ورفت على وضي سحابك
وأمدت عليك اجنحة خضرا ... واضفت ثيابها فى رحابك
فتحدرت فى الزمان وافرغت ... على الشرق جنة من رضابك
بين احضانك العراض وفى كنـ ... ـيك تاريخه وتحت ثيابك
مخرتك القرون تشمر عن سا ... ق بعيد الخطى قوى السنابك
يتوثبن من الضفاف خفافا ... ثم يركضن فى ممر شعابك

وحروف ريانة في اسمك«النيـ ل» ونعمى موفورة في جنابك
انت في سلك الدماء وفي الأ(م) نفاس تجري مدويا في انسيابك
ان نسبنا اليك في عزة الوا ثق راضين وفرة عن نصابك
او نعمنا بك الزمان فلم نبـ ل بلاء الجدود في صون غابك

ولطالما ذكر التجاني النيل بالخير في كثير من قصائده .فجزيرة توتي في نظره دره يحفها النيل .

وفي قصيدته « في زورق » يقول :

يا نيل يا آية مـا للقضـــاء من جبرة تدفع شتى الصور
رفنا بمــن آواك الهامـــه وصاغ في صدرك وحي الجمال
آمالــه يا نيـــل احلامـــه شبابه الغض الوريف الظلال

ويقول في قصيدته « الزورق الاخضر » :

يا نيل لم تحبس لانســـان يخفك في جنبيـك قلبـــان

ويصف نفسه في قصيدته « الادب الضائع » قائلا :

وعلى النيل ما يـزال مطــلا جانحـا دونه بيمنـى ذراعــه

ويصف نفسه مرة اخرى في قصيدته « نفس » فيقول :

نفس تطايـــر كالشعـــا ع وتستحيل الـــى حنـــين
هي تلك نفـس فتـى أقـــا م بها على حرم الفنــــــون
فـي النيل تقتحـــم العبـــا ب وتستشيـط وتستلـــين
وهنـاك فـــي ثبج الميـــا ه وبـــين مسرحها الامـــين
وقفـــت تتمتـــم للالـــه بمــا تقدس أو تديـــن

ويمزج شاعرنا عواطفه نحو النيل بعواطفه القلبية في قصيدته

« انت ام النيل » ليقول :

غننا يا جميل اغنية النيـ ـل بسحر عينيك فيه
انت يا فاتنى ام النيل زخار بنفسى كليكما من شبيه

قصيدته « ثقافة مصر » :

مناظرة اشترك فيها الاديب المصرى حسين صبحى ، فقال فى اراد ان يدافع عن ثقافة مصر ، بعد ان هاجمها بعض الادباء فى ويعبر الشاعر عن عواطفه وآماله وافكاره الخاصة والعامة لما

انما مصر والشقيق الاخ السد ودان كانا الخافق النيل صدرا
مصر راشت وثقفت واعدت منه شمسا واطلعت منه بدرا
هيأت فكره فازغب فاستتـ ـرى فاعيى ركضا واعجز طفرا
كلما انكروا ثقافة مصر كنت من صنعها يراعا وفكرا
جئت في حدها غرارا فحيا اللـ ـه مستودع الثقافة مصرا
نضر الله وجهها فهى ما تز داد الا بعدا على وعسرا
يا بن مصر وعندنا لك ما نأ مل تبليغه من الخير مصرا
قل لها من صراحة الحق والحـ ـق بان يؤثر الصراحة احرى
وثقى من علائق الادب البا قى ولا تحفلى باشياء اخرى
وقفى بالصلات من حيث لا تعر ف الا مسالك الفكر مجرى
كل ما فى الورى عدا العلم لا يكبر شعبا ولا يمجد قطرا

توتى :

يكاد ينعقد اجماع النقاد لدينا بان قصيدة « توتى فى الصباح » اجمل قصائد التجاني في وصف الطبيعة ، بل انها من ابدع شعر الوصف عموما ، وفيها يقول :

يا درة حفها النيـ ـل واحتواها البحر

صحى الدجى وتغشا ك في الاسرة فجر
وصاح بين الربى الغ ر عبقرى أغر
وراح ينفض عينيه من بنى الأيك حر
فماج بالايك عش وقام فى العش دير
كم ذا تمازج فن على يديك وسحر
يخور ثور وتثغو شاة وتنهق حمر
والبهم تمرح والزر ع مونق مخضر
تجاوب اللحن والطحـ ـن والثغاء المسر
وهب صوت النواعـ ير وهو في الشجو .ـر
از الجرار وقد ضا ق بالقليب الممر
تكسرت وهي تهوى فما تلاءم كسر
فتلك معصوبة الرا س كم تنى وتخر
وتلك فوضى وهاتيـ ـك للخواطر قبر !
وظل قرنك يا شمـ ـس آنذاك يذر
ذياك يغرق في العشب جاهدا ما يقر
وذاك يعنيه حرث وذاك يعنيه بذر
وماج في الغيط نشء ملء النواظر خزر
هناك فول وهذا ك في السنابل بر
وما تعذر شيء ولا تعسر أمر
مشى الضحى وله بعد في رباك مجر

وعقب الدكتور عبد المجيد عابدين ، على القصيدة ، في اعجاب بالغ جعله يبالغ اذ يقول : (أرأيت كيف استطاع الشاعر ان ينقل اليك قصة شعوره بحب هذه الجزيرة ، ومواطن الجمال التي دفعته اليه . وما اجدر ان يكون هذا نشيدا وطنيا ، لان مثل هذا الشعر انجح في تحبيب الوطن الى النفوس من تلك الاناشيد

التي تدعو الى الفداء والتضحية .)

الخرطوم :

ورغم اننا نوافق الاستاذ محمد محمد علي . على نقده وقوله: (ومدينة الخرطوم في قصيدة التجاني «الخرطوم» مدينة اخرى غير الخرطوم التي يعرفها التجاني في حياته . وغير الخرطوم التي نعرفها اليوم . بعد ان اصاب السودان واصاب عاصمته شيء من التطور) ، الا اننا نرى ان تلك القصيدة يمكن ان توصف بالشعر المصنوع أو المتكلف ولكنها لا تدخل في باب الغموض . اذ تحدث فيها التجاني عن اوصاف غير متداولة في الشعر السوداني . وان كانت مستعملة لدى بعض شعراء مصر والمهجر مثل علي محمود طه وابراهيم ناجي وشفيق المعلوف واحمد زكي ابي شادي ورشيد سليم (الشاعر القروي) وخاصة تشبيهات التجاني التي يقول فيها « الزهرة المونقة » و «ضفافها المورقة» و «اغنية مطرقة» و « شمسها الخمرية » و « القمر الرافه » و« حجرات الذهب » .

ويرى الاستاذ عز الدين اسماعيل في دراسته « من مظاهر الرومانتيكية في شعر التجاني » ، ان تلك القصيدة كغيرها من قصائد التجاني في الطبيعة، انما هي مظهر من مظاهر الرومانتيكية. مثل ثورته على التقاليد العامة في المجتمع السوداني وثورته على المنهج التعليمي في المعهد العلمي . بل والنظام التعليمي في الخلوة ايضا . ومثل ثورته على الوضع السياسي . ولكنه يستدرك ليقول في ص ١٠٠ من كتاب « دراسات في شعر التجاني » :

(وانني بعد هذا الذي قدمته اقول ان رومانتيكية التجاني لم تكن رومانتيكية خالصة ، اي انه لم يلتزمها في كل شعره . ويمكننا ان نقول انه قد تأثر بالرومانتيكية فيما تأثر به من

مطالعاته ، ولكنه لم يجعلها مذهبا له ، من ذلك ان له شعـــرا واقعيا كقصيدة «توتى في الصباح » ، وقصيدة « الخلوة » . وان كانت التعابير والاخيلة الرومانتيكية تجد سبيلها الى هذا الشعر ايضا .)

ظاهر مما تقدم ان الاستاذ عز الدين يفسر شعر التجاني على ضوء المذهب الرومانتيكي . على خلاف اكثر النقاد مما أوضحته منقبل ، فيما يتعلق بتفسير المذهب الشعري للتجاني .

ولا ينحصر الخلاف في ذلك فحسب . بل في الاسباب التي دفعت التجاني الى التعبير عن قلقه وشكه وثورته وتمرده اذ يقول في صفحة ١٠١ :

(هذا وان بعض مظاهر الرومانتيكية التي لمسناها في شعر التجاني قد لا تكون من أثر مطالعاته الرومانتيكية . فقد تكون منبثة من طبيعة نفسه دون مؤثر خارجي . وقد تكون نتيجـــة لمطالعات اخرى . فالصوفية في شعره مثلا قد يكون سببها التأثر بالرومانتيكية . وقد يكون سببها التأثر بمطالعاتـــه في كتـــب المتصوفة . وقد تكون حياته التى كان يحياها من ضنك وفقر وتربيةاسلامية هي التي انبثقت عنها صوفية . وقد تكون هذه العوامل مجتمعة هي سبب ذلك ...)

يخلص مما تقدم ان التجاني قد اتخذ من قصائده في الطبيعة سلما للتعبير عن آرائه وافكاره . في اكثر الاحيان . وان لم يتعدم لديه الدافع او المبرر لتبيان انفعالاته النفسية تجاه ســحـــر الطبيعة وروعة مشاهدها ومناظرها . وان مذهبه هو الواقعية . سواء في الشعر ام في النثر .

الفصل التاسع

الحب في شعره

ليس من اليسير تعريف الحب أو غيره من العواطف الانسانية، رغم ان قاموس الادب ، يزخر بآلاف من الاشعار والجمل التي تتحدث عنه ، وان علوم النفس والجمال والاجتماع ، تحاول جاهدة وضع تعاريف لكثير من المصطلحات الادبية او الانسانية.

ولعل من المسلم به ان الحب الوان وانواع ، ولكن يقصد بالحب في الشعر العربي ، ما عرف بالغزل فحسب ، دون سائر الوان الحب الاخرى ، مثل حب الانسان لوالديه او ولده .

وتحتاج عاطفة الحب ــ ككل عاطفة اخرى ــ الى الصدق ، ولذلك ، ما لم يصدر الشعر عن عاطفة ذاتية ، وتجربة خاصة ، فمن العسير ــ الا في النادر من الاحيان ــ ان يصدر شعر غربي صادق ، يعبر عما يجيش في نفس الشاعر ، وما يضطرم به قلبه من احاسيس ، وما تفيض به شرايينه من دماء حارة ، وما ينفث صدره من آهات لاهثة .

ولقد ذهب فريق من النقاد الى ان حب التجاني ، كان حبا عاديا، ذلك الذي يقوم بين الرجل والمرأة ، وذهب فريق آخر الى ان حبه كان عذريا .

يرى الدكتور عبد المجيد عابدين ، ان التجاني قد تغنى بالجمال البشري وان حبه للجمال كان ذا أثر بالغ على حياته وفنه على السواء .

واستولى الناقد الكبير على ذلك بصيحات التجاني وصرخاته وابتهالاته الى محبوبته ، بل ذهب الى القول :

(ولكن يخيل الى ان الشاعر قد خص فتاة نصرانية بحب عميق. ومن اليسير على من يتصفح ديوانه ان يحكم بان كثيرا من شعره الغزلي ينطبق على حبيبة معينة ...

كل هذا يرجح ان الشاعر قد تعلق تعلقا شديدا بفتاة نصرانية. وربما الهمته كثيرا من شعره الذي تغنى فيه بنغمـــات الجمال البشري . وكان لها اثر كبير فيما نظن في انهاب شاعرية الشاعر . ودفعه الى نزعة صوفية واضحة) .

واستطرد الدكتور عابدين ليفسر ذلك الحب تفسيرا تاريخيا ونفسانيا . فقال : (ومهما يكن فان حب التجاني تلك النصرانية قد غلب على كل حب وملك عليه شغاف قلبه . ولعل هذه الظاهرة تؤيد نظرية القائلين بان الحب يزدهر . ويقوى. ويشتد .حيث وجد التباين والاختلاف بين الجنسين المتحابـــين . في اللون . وقسمات الوجه . والطبيعة . والمكانة الاجتماعية . والنسب.)

ولكن يبدو ان الدكتور عابدين . لم يكن مطمئنا لذلك الرأي. اذ انه استطرد . ليقول ان غزل التجاني يسمـو على الجسد :

(على ان غزل التجاني يتميز بطابع معين . فقد سبق ان قلنا ان التجاني قلما يصف الحبيبة وصفا حسيا . ولم يرد الا وصف العينين . ولكن حتى وصفه للعينين لم يكن مقصورا لذاته . بل كان يتطلع دائما الى ما وراء العينين من معان مستورة . وقوى خفية . ولا يهمه من العينين صفة الدعج . او الحور . او السعة او غير ذلك مما يقف عنده الشعراء الحسيون . ويعنون به .ولكنه يرى فيهما عالما اوسع . وحياة ازخر .)

ثم يستطرد لكي ينقض الناقد رأيه الاول الى حد كبير . اذ يقول :

(وهكذا يتسامى التجاني في غزله عن الجسد ، ويسمو الى تغني الجمال وأثره على قلبه ، أو أثره على الجميل المحبوب .

فالتجاني في شعره ابعد الناس عن الاوصاف التي تقف عند الجسد ولا تكاد تتخطاه .)

ومهما يكن من راي . فانه يخيل الى ان الدكتور عابدين لم يستقر على رأيه الاول ، لدى تصديره للطبعة الثالثة من ديوان « اشراقة » عام ١٩٥٥ . اذ جاء في مقدمته القيمة :

(ولكن الفترة التي قضاها التجاني في شركة سنجر كانت فترة الهام للشاعر وتامل في مفاتن الجمال . فقد كان بحكم عمله في الشركة ذا صلة مستمرة بالاجنبيات من حسان اليهود والنصارى اللائي كن يعملن معه في الشركة او اللائي كان التجاني يراهن في بيوتهن حين كان يذهب اليها لتحصيل اموال الشركة او اللائي كن يرتدن الشركة للزيارة أو الشراء . فلعل هذه الفترة ــ كما يرى صديقنا الاستاذ المبارك ابراهيم ــ كانت منبعا قويا لهذا الشعر الذي تغنى فيه التجاني بحسان اليهود والنصارى .

ولكن مهمايكن من أمر . وسواء أكان وحي الشعر الغزلي لدى التجاني امرأة بعينها او كثير من النساء . فلسنا على رأي الدكتور عابدين او الاستاذ المبارك ابراهيم من ان الجمال البشري كان ذا أثر بالغ على حياته او فنه . ولكنا على رأي جمهرة النقاد عن ان حب التجاني كان حبا عذريا أو ان شئت فقل تقليديا ، وكذلك كان اكثر شعره .

هو شعر مصنوع لا مطبوع فيما يتعلق بموضوع الحب .

ولقد اوضح الاستاذ ابو القاسم محمد بدري فى كتابه « الشاعران المتشابهان ـ الشابي والتجاني » (١٩٥٩) ، رأيه صراحة فيما يتعلق بحب التجاني ، فذكر بأنه حب روحاني او ان شئت فقل عذريا .

وهو يقول في صفحة ٦٥ :

(وصاحبنا التجاني يعبد الحسن في صوره المختلفة . في اجناسه المتعددة . ولن يحول بينه وبين عبادته معتقد أو دين أو اختلاف في الاوطان او الالوان . وهذا هو الحب الرفيع البديع... لانه شيء روحاني ، لا يقصد به قضاء لذة أو اشباع رغبة وقتية عاجلة ، بل يقصد به عبادة الحسن وتمجيد الجمال في اي شكل من الاشكال وفي اى جنس من الاجناس) .

وفي رد الاستاذ فاروق الطيب البشير . على رأي الدكتور عابدين ، انتهى الناقد الى القول :

(على ان الحب في حياة التجاني نفسه ليس بالشيء المقطوع به . لا في عالم الواقع المحسوس ولا من خلال الديوان ، فنحن لا نجد في شعره الذي يتحدث عن الحبيب الا انجذابا وتشوقا وحرقة لاهبة ـ ولا نجد ذلك النوع من شعر الحبالذي يدور حول الهجر والوصال والصد واللقاء الى آخر هذه الرقعة التي يزرعها شعراء الحب عادة .)

ويرى الاستاذ صلاح احمد ابراهيم ، ان اشارات التجاني الى محبوبات ، لا عد لهن ، يدل على انه لم يكن عاشقا لاحداهن ، بل كان يتخذ من الحب سلما للهروب من الواقع او تساميا على الشهوة ، أو ملاذا يستدفيء فيه . وفي هذا يقول :

(والتجاني يحب ان يحب وليس هو بمحب ، فهناك حبيبان من يهود وقبط . وهناك ابنة لبنان ، وهناك « الذي يبرز في

وجنتيه العضد » اي الجمال السوداني ، وهناك الذي يطري الجمال فيه ويغري صبوات النفوس ان تتوقد ... الخ لماذا ؟

لان التجاني كان يبحث عن ملاذ من واقعه ، عن ظل وهمي يتقي تحته حر الهجير ، ووجده في الجمال وفي الهرب ... الجمال ذي الخصائص الافلاطونية ...)

يخلص من كل هذا ، اننا نميل الى الرأي القائل بان حب التجاني كان حبا روحانيا لا ماديا . رغم ان للتجاني تسعة عشرة قصيدة في موضوع الحب وهي :

طفرة ساحر ــ من وراء النافذة ــ هوى قاصر ــ تعويذة ــ رب ما اعظم الجمال وأمجد ــ الى ــ من هنا وهناك ــ جراح واحدة ــ كنائس ومساجد ــ وزهر الحسن ــ نديم الحب ــ انشودة الجن ــ انت ام النيل ــ النائم المحور ــ في الموحى ــ نعيم الحب ــ كذلك الحب ــ من اغوار القلب ــ لوحة الشاعر ــ جمال وقلوب .

واذا قلنا ان شعر حبه ــ وهو ما يعادل ربع قصائده ــ مصنوع لا مطبوع . فاننا نغني بذلك اكثر شعره ، بطبيعة الحال ، اي اننا نستهدي في الحكم بالقاعدة لا الاستثناء .

ولا نرى تناقضا في هذا الرأي ، والقول بان بعض شعره الغزلي ، يميل الى الجودة ، رغم اصرارنا ــ في الحالين ــ على ان حبه عذري لا مادي ، وذلك لان الشهوة التي احتدمت في حنايا جسمه ، ومرارة انفعالاته لرؤية النساء عموما ، ورغبته الطبيعية في ان ينال حظه من الحب ، يمكن ان يكون دافعا لقول شعر جيد ، أقرب الى المطبوع منه الى المصنوع ، بل اقرب الى الواقع منه الى الخيال .

وعلى هذا ، فاني ارى ان من اجمل قصائد الحب ، قصيدته « جمال وقلوب » ، وها هي القصيدة :

وعبدناك يا جمال وصغنا — لك انفاسنا هياما وحبا
ووهبنا لك الحياة وفجر — نا ينابيعها لعينيك قربى
وسمونا بكل ما فيك من ضع — ف جميل حتى استفاض واربى
وحبونساك ما يزيدك يا لغ — ز وضوحا وانت تفتا صعبا
وذهبنا يما يفسر معناك — بعيدا وانت اكثر قربا
من ترى وزع المفاتن يا حس — ن ومن ذا اوحى لنا ان نحبا
من تحرى علم القلوب هوى الح — سن وقال اعبدي من السحر ربا
من ترى ألهم الجمال وقد اعط — اه من جبرة الحوادث عضبا
ان يبث الهوى مفاتن في جن — ن بليغ وان يجود ويأبى
من ترى وثق العرى بين مسحو — رين اسماهما جمالا وقلبا
انه صانع القلوب التي تنص — ب في قالب المحاسن صبا
يا جمال الحياة في حيثما كا — ن أمامنا وحيثما كان رغبا
وجمال الحياة في كل من أعمل — شرقا وكل من سار غربا
أقس يا حسن ما تريد وتبغي — أو فكن هنيا على النفس رطبا
أنا وحدي دنيا هوى لك فيها — كل كنز من المشاعر قربى

وكذلك قصيدته « كذلك الحب » ، وها هي أيضا :

تجري مع الحب الى غاية — خبيئة كالعطر في ورده
ادنى الى الانفس في طيبه — بقدر ما يوغل في بعده
اذا انقضى كان على صدره — قبر لذلك العرف من بعده
كذلك الحب وغاياته — من برقه الخاطف أو رعده
يا من فجرت الحسن في عالم — من جندك القلب ومن جنده
يرف سحر الكون في ثغره — ويولد الحب على مهده
متاعب الدنيا وآلامها — ومبعث الفتنة من عنده
هبتني القلب الذي لم يفق — من سكرة الحسن ومن وجده

وانت يا من ذقت طعم الهوى — من سحر عينيه ومن خده
عيناك هاتان وقد صيغتا — من كبرياء الحسن او مجده
عيناك هاتان وما فيهما — من هادىء السحر ومحتده
كمضمر سرا ومن بينه — مغالق الكون ولم يبده
يا صحو دنياي واحلامها — ورقة العابد في زهده
مثالية الحسن وآلاءه — وبر ما سلف من وعده
تعالي يا لوعة (قلبي) وما — تحرجت كفاك من وأده
نستقبل الروحي من حبنا — ونبعث الموءود من لحده

ولعل من روائع قصائده أيضا ، « هوى وفقر » وقد سبق وردد ابياتها في موضع آخر ، ومطلعها :

سمى بالهوى فقري ومن لك با! هوى سماوى معنى كله أبدا نبل

الحسن والعين :

ونود ان نستطرد لكي نثبت للقارىء ، ان حب التجاني لم يكن حبا ماديا . ذلك لان التجاني لم يعبر عن اعجابه بمفاتن الجسد الانثوي ، او لهيب الهجر او نعيم الوصال ، او تبادل الافكار ، ولكنه طرب للجمال أو الحسن طربا عاما ، اي انه مال الى الجنس اللطيف عموما ، لا ميلا خاصا لامرأة معينة ، ومثل هذا الميل يعبر عن شهوة الجنس عموما ، لا عن الحب ، وهو أمر طبيعي ، لا غضاضة فيه ، بل انه يعبر عن واقعية التجاني ، وبعبارة اخرى : فان الغزل الذي ندعوه مصنوعا ، يعبر في الواقع من الامر عن الحرمان الجنسي ، وهو حرمان يبلغ درجة من الحدة والحرارة ، تماثل في فترة الشباب ، حرمان الانسان من الاكل والشراب ، وخاصة بالنسبة لشاب مرهف الحس ، مثل

التجاني . لم يتقدم به العمر لكي يتغلب على عواطفه الحسية ، فكان الجنس بالنسبة له ، وهو في مقتبل العمر . ضرورة ملحة، الى حد كبير . وقد ساعد على اشعال نيران عواطفه ، وجـــوده وسروره على حي المسالمة ، حيث يسكن بعض من المصريـــين والسوريين واللبنانيين والارمن ، وحيث كانت تسنح لهالظروف تبادل النظرات مع حسناء او حسناوات الحي ، او القاء النظر على فتاة او فتيات وراء زجاج النافذة ، أو على بعد من خطواته فـــي الشارع الذي كان يسير به سواء بامدرمان او بالخرطوم . وحيث كان منزله بالقرب من المساجد والكنائس ، وكان له صحـــاب كثيرون من ابناء الطوائف المختلفة . سواء في حي المسالمة او غيره من الاحياء .

ولذلك ، كانت بعض قصائد التجاني ، مثل : من وراءالنافذة وكنائس ومساجد وهوى قاصر ، ذات دلالات على تأثره بالبيئة المحيطة به ، تأثرا شديدا بالغا .

ولعله مما يؤيد ذلك . ان اكثر النقاد المعجبين بشعر التجانـــي الجمالي ، لم يملوا التكرار من ان التجاني كان لا يعجب بالعيون بل بما وراء العيون ، وانه لم يكن يقف عند الصفاتالحسية ، بل يتعداها دائما الى المجالات النفسية أو الروحية .

وللتدليل على كل ذلك ، نقتطف بعض ابيات من قصيدة « هوى قاصر » :

أهكذا ــ عوفيت ــ يا فاتــر   يملأ دنياك الهـــــوى الآسر
يا ثائر العينين من شـــاخص   مفزع مطلعـــه الساحــــر
كل جلال الحســـن أو سحره   في دمعـــة يخطفها الخاطـــر

ويردد التجاني المجابه بالحسن مرة اخرى في قصيدته « تعويذة» فيقول :

عوذوا الحسن بالرقي أوخذوني   أنا تعويذة لكعبته روحي
قربوها مجامرا انا وحدي   عوذ الجمال من كل روح
واعصروا قلبي المفزع للحسن   امانا وعوذوه بنوح

ويردد لفظ الجمال أربع مرات بدلا عن الحسن ، فيقول في قصيدته « رب ما اعظم الجمال وأمجد » :

أيها الناعم العزيز أحدق   بعينيك من تقى وتعبد
انت تطري الجمال في كل عين   نعمت بالجمال في كل مرقد
وبنفسي لمست روحك واستر   حمت عينيك للفؤاد المشرد
انت تطري الجمال فيك وتغر   ي صبوات النفوس ان تتوقد
بعض هذا الجمال يظهر بعضا   رب ما اعظم الجمال وأمجد
رب ما اعذب الجمال واحلى   موقفا يسحق النفوس ومشهد

ولا يتجاوز التجاني معانيه والفاظه في قصيدته «من هنا وهناك» اذ يقول :

عجيب انت يا قلبي فكم ذا   يهيب بك الجمال وتستجيب
يظل بك الهوى فرحا فتبكي   فتشرب من مدامعك القلوب
تروح بك الصبابة كل يوم   مجاهل كل آهلها غريب
وجن بك الهوى فهنا غرير   علقت به ومن هنا حبيب
وتلك في معاصمها سوار   وذاك في ترائبه (صليب)
يرف عليه من بطر ونعمى   معالم كلها أرج وطيب
في عينيه مستترى ومأوى   لروحي وهي هائمة مريب
أحس بفعل سحرها عا الليالي   فيمنع جانبي السحر الرهيب
وبين يديه ينبوع وعندي   كؤوس هوى وفي شفتيه كوب
تفرعني الهوى فلكل عين   تمر علي في الدنيا نصيب

ويعبد العين أيضا في قصيدته « من اغوار القلب » . فيقول :

يا طرير الشباب من صاغ هذا الحسن في زهوه وفي استكباره
من اذاب الضياء فيه ومن نغـ م شجو الهوى على أوتاره ؟
من رمى من أصاب من صور الفتنة من زرها على ازراره
والفتور الذي بعينيك من موه سحر الحيـاة في اقطاره
نظرة كالصلاة زلفى الى اللـ ـه وقربى لعزه واقتداره
غمروا بالحنان روحك واستنـ ـت قلبي اليك من اغواره

أما وقد عرفنا المطبوع من المصنوع من شعره . فان علينا ان نتناول بالبحث ايضا الغموض في شعره .

الفصل العاشر

الغموض في شعره

سبق ان ذكرت ان صديق التجاني الاستاذ محمد عبد القادر كرف ، قد عزا الغموض في بعض شعر التجاني . الى دراسته في المعهد من ناحية ، والى الاطلاع على بعض الكتب الفلسفية مثل الملك والنمل والحكم والرسالة القشيرية . من ناحية اخرى .

ويميل بعض النقاد الى ذلك الرأي ، اذ يعتبرون ان استغراق التجاني في القراءة . جعلته يميل الى الغموض في بعض قصائده.

والغموض في الادب عموما . مسألة يصعب بحثها . والوصول فيها الى نتائج واضحة محددة ، خصوصا ان التعبير عن كثير من المسائل والمشاكل العلمية والادبية والسياسية أضحى يتطلب دقة في التعبير ، من ناحية . والماما بالموضوع الذي يتناوله الاديب او الباحث. من ناحية اخرى .

ولذلك ، فانني أود ــ بادىء ذي بدء ــ ان اذكر انني اعزى الغموض الذي اعتور بعض قصائد التجاني وبعض الابيات المتفرقة هنا وهناك : في ديوانه . الى طبيعة المسائل التي بحثها التجاني . اذ ان الغموض يعتور بحث المسائل والمشاكل الميتافزيقية او مواضيع ما وراء الطبيعة ، لانها أمور لا تخضع للملاحظة او التجريب أو البحث العلمي .

لذلك نرى ان التجاني عندما يعبر عن آرائه ومعتقداته الدينية. يكون تعبيره واضحا الى حد كبير . وكذلك عندما تتغلب عليه

نزعة الايمان العميق ، ولكنه عندما يبحث في الامور الفلسفية- البحتة او يحاول ـ احيانا ـ تأييد الدين بافكار فلسفية او نظرات عقلية ، فانه يقع في حبائل الغموض ، وهو أمر لم يقع فيه التجاني وحده ، بل ان اكثر من حاولوا من فلاسفة المسلمين التوفيق بين الدين والفلسفة ، لم يستطيعوا تقديم آراء او التعبير عن المشاكل بمنطق يتفق ومنطق العصر الحديث .

ويرى نقاد آخرون ان الشعر بطبيعته يتطلب الغموض والرمز والايحاء ، ولكن الاستاذ محمد محمد علي ، لا يذهب في كتابه « محاولات في النقد » ، مذهب النقاد الذين يدافعون عن الغموض في شعر التجاني ـ وان أقروا به ـ لانه يذهب الى ان الغموض في شعر التجاني يكاد يكون عاما ، لانه لم يعتور قصائد شهيرة فحسب مثل « قطرات » و« قلب الفيلسوف » و « الزاهد » و« النيل » « والخرطوم » ، بل يمكن ان نعثر على الغموض في معظم صفحات الديوان .

وفي هذا المعنى يقول الناقد في ص (٧٨) :

(لم تكن القصائد التي تعرضت لها من شعر التجاني مثالا فذا من الغموض الذي يدعو اليه التكلف والاعتساف ، فهذه المعميات كثيرة ، يستطيع القارىء ان يعثر عليها في معظم صفحات ديوانه ...)

ويبدو لنا ان الناقد قد تحفظ في قوله ذلك بعض الشيء ، كما انه استدرك ليقول في صفحة ٨٨ : (على أن الامر بالنسبة لشعر التجاني لم يكن أمر مذهب خاص من مذاهب الغموض . فهو واضح مفهوم حين يتحدث عما يحس ويعرف ، وهو ملتو غامض يضرب في أودية المبهمات والمعميات حين يتكلف ويغرب) .

وانتقد ايضا انتقادا مريرا قول التجاني في مجلة الفجر بان على الشعراء « ان يأخذوا بيد النقاد الى البحر الذي ينهلون منه ويطلوا بهم من الثنايا التي يستوحون فيها . ويهبط عليهم من شيطان الشعر او شيطان الجديد ، ليرى الواحد منهم بعين رأسه طول النهر وعمقه وزفرة امواجه وما تنبت شطئانه من ملائكة وشياطين » . اذ عقب عليه بقوله في ص ٨٩ (اعتقد ان الشعراء في جميع العصور يردون منهلا واحدا ، يضيق ويتسع . ويصفو ويكدر ، وتختلف روافده باختلاف العصور والاحوال . ومثل الشعراء في هذا مثل النقاد والمتذوقين للادب بصفة عامة .وما اظن الطبيعة حبت شعراء هذا العصر بحواس وقوى جعلت منهمانبياء يتكلمون لغة سماوية عليا . وضنت على النقاد المحدثين بالحاسة الفنية التي كان يفهم بها سلفهم شعراء عصرهم . فالصلة الوجدانية والفكرية بين الشعراء والنقاد كانت وثيقة العرى . وبذلك يعترف التجاني . فما الذي خلق هذه الهوة السحيقة بين الناقد والشاعر في العصر الحديث ؟)

ظاهر مما تقدم ان الناقد قد شدد النكير على قول التجاني :« ان اهم ميزات الشعر الحديث انه اصبح يؤدي واجبه في الحياة كلغة سماوية عليا . لا اصطلاحات بشرية قصيرة . وان الشعراء اصبحوا يؤدون واجبهم كانبياء تفتح لهم ابواب السماوات » . اذ رأى الناقد ــ بحق ــ ان اعتماد التجاني على الذوق والادعاء بالالهام . يجعل الشاعر خصما وحكما ، في حين انه يجب ان يكون ثمة معايير علمية للشعر او للنقد كأي مسألة اخرى ، من المسائل العلمية ، كما رأى الناقد بان الغموض لعنة على الادبوان الوضوح هو غاية من غاياته . فمذهب الناقد ــ على حد تعبيره هو « ان وظيفة الشاعر والفنان على اطلاقه شرح احساساتــه

وافكاره ووضعها في صور متناسقة مشرقة ، اعني انه يجب ان يكون صاحب الفن صادق الشعور ، يصور عن تجربة نفسية عميقة مكتملة ، وان يكون بعد ذلك بينا واضح البيان ...

ولكن ميزة الشاعر انه يستطيع ان يعبر تعبيرا واضحا جميلا عما يحسه الناس ويعجزهم التعبير عنه . »

ويعزو الناقد سبب الغموض في شعر التجاني الى سببين رئيسيين ، فيقول في صفحة ٨٣ من كتابه المذكور :

(اولهما ان أداته في الاداء لم تنضج فهي ما زالت في ريعان الحداثة الفنية .

والثاني يمت بصلة الى السبب الاول هو ان التجاني كثيرا ما يهجم على موضوعات لم تعش في نفسه ، ولم يكن لها صدى في حياته) .

ويبدي الناقد المعلم السبب الذي حدا به الى الكشف ـ في تفصيل ـ عن العيب الذي انطوى عليه شعر التجاني ، في جمل تفيض انسانية ورقة ، اذ يقول في صفحة ٨٩ من كتابه :

(أما بعد ، فأني لم أعمد الى هذه الناحية من شعر التجاني للنيل منه والحط من شأنه ، بل لاقرر حقيقة خالطت نفسي بعد صحبة طويلة لشعر الشاعر ، فانا لا انكر ان التجاني قد شق طريقه بين الصخور ، وانتهج منهجا لم يكن يسير لامثاله . ولا مرموقا بعين الرضا .

ولعلي أكون أشد حبا له وتقديرا لمواهبه من اولئك الذين يكيلون له المدح جزافا ، ويعجبون من ادبه بما يجهلون . ويكفي لاثبات ذلك انني كنت اقرأ شعره قبل ان يجمع من ديوانه ، ايام كان الناس لا يتحدثون عنه الا لماما .

وقد عرفت بين اصدقاء ادبه بحبي له وحدبي عليه ودفاعي

عنه . ولكننا اليوم على ابواب نهضة ادبية ، نرجو لها ان تزدهر وتثمر وتسير على نهج قديم ، وللتجاني قراء ، ومعجبون من ناشئة البلاد ، وهم عماد النهضة الادبية المرتقبة ، وهم الذين نأمل ان يحققوا ما لم نستطع تحقيقه . فمن حق هؤلاء علينا ان ننفض اليهم خلاصة تجاربنا ، وان ننصب لهم معالم الطريق ،وان ننبههم الى مكامن الخطر .)

ورغم صحة ما ذهب اليه الناقد عموما ، الا انني أرى انقوله « فهذه المعميات كثيرة ، يستطيعالقارىء ان يعثر عليها فيمعظم صفحات ديوانه »فيه مبالغة الى حد كبير ، ولربما كان منأسباب تلك المبالغة انه لم يحاول « استقصائها والاسهاب فيها » ، على حد تعبيره .

ولا يتسع المقام في هذا البحث لبيان كل قصيدة او بيت يعتوره الغموض من شعر التجاني . لانني اهدف من هذا المبحث، مثلما هدف الناقد ، الى معرفة اسباب الغموض ودواعيه ، ولذلكيتعين علي ان اكرر ، ان السبب الرئيسي لغموض شعر التجاني هو طبيعة المواضيع التي تناولها ، في الاعتبار الاول ، من ناحية . وللاسباب التي ذكرها الاستاذ محمد محمد علي من ناحية اخرى، ذلك لانني فهمت من قوله (التجاني كثيرا ما يهجم على موضوعات لم تمس في نفسه ، ولم يكن لها صدى في حياته) ، انه يعني الموضوعات المادية أو الحسية . وليست الموضوعات الماورائية .

وللدكتور عبد المجيد عابدين ، في مسألة الغموض . رأيجدير بالذكر والاعتبار .

وهو يقول في صفحة ٨٤ من كتابه :

(١) رأينا ان التجاني مولع بتجسيم المعاني وتبادل المحسوسات. ولكن اسرافه فيهما ، قد ادى به الى غموض العبارة وتعقيدها...

(٢) وكثيرا ما يلقى التجاني بعبارات غامضة في خلال الابيات اذ يترك الضمائر فيها مبهمة ، لا يعرف القارىء الام تعود على وجه التحقيق ، ويترك الصور غامضة دون توضيح ..)

والحق ان الغموض في شعر التجاني ، يحتاج الى مزيد من الدراسات ، اذ انه موضوع واسع . يتطلب بالضرورة دراسة كل قصيدة على حدة ، لمعرفة القصائد الواضحة أولا ، ومن ثمة معرفة القصائد الغامضة او التي يعتورها الغموض ، ثم تعيين الغمرض في بيت أو أبيات ، وبالتالي نستطيع ان ننبه الناشىء او الدارس لادبه عن نواحي القصور في قصائده ، مثلما نبرز له مناحي الصدق والتفوق فيها .

الفصل الحادي عشر

نثر التجاني

اولا : آثاره :

يبدو لي ان التجاني ــ كمعظم معاصريه بل كمعظم الادباء والصحفيين السودانيين ــ لم يبه بجمع نثره . بل أقتصر على جمع شعره وحده . على ما سبق ان رأينا في صدر الكتاب .

ولذلك . ظل نثره مغمورا ومنثورا في المجلات والجرائد القديمة . مثل الجريدة التجارية وملتقى النهرين والفجر وام درمان والنهضة السودانية .

ويجد القارىء في الفصل الاخير من الكتاب منتخبات من نثره، الغرض من نشرها . المساهمة في جمع نثره . اذ انني اعتقد ان نثره يساعد كثيرا على فهم حياته من ناحية ، كما يلقي ضوءاعلى شعره من ناحية اخرى . بل انه يقدم دليلا ساطعا قاطعا على وجدانه الاجتماعي . على ما سبق شرحه في فصل سابق .

وانني وان لم استطع جمع نثره كله ، فان الامل يراودني في ان يتم ذلك قريبا على يد غيري .

وبعد الرجوع الى بعض تلك المجلات ، يبدو لي ان أهمالمقالات التي نشرت له هي كما يلي :

في الجريدة التجارية :

الادب والفن عندنا	(العدد ١٥٥ ــ ٢٢ ٢ ١٩٣١/)
حول رواية مجنون ليلى	(العدد ١٥٩ ــ ١٩٣١/٣/٢٣)

في ملتقى النهرين :

الاجرام في التاريخ	(العدد ١٦٣ ــ ١٩ /١٩٣١/٤)

الصحافة (العدد ١٧٧ ـ ٢ /٨/ ١٩٣١)

في الفجر :

في المستوى الشعري للامم (العدد ٦ ـ ١٦ /٨/ ١٩٣٤)
مسكمة ادبية كبرى بين الشاعر والناقد (العدد ١١ ـ ١/١١/ ١٩٣٤)

في ام درمان :

القيادة الفكرية (العدد ١ ـ ١٥/٩/ ١٩٣٦)
الاثار الشعرية البهمة (العدد ٢ ـ ٣٠/٩/ ١٩٣٦)
القمر والزهر واثرهما في الشعر العربي (العدد ٢)
المعهد العلمي (العدد ٣ ـ ١٥/١٠/ ١٩٣٦)
آل فلان وآل علان (العدد ٦ ـ ٣٠/١١/ ١٩٣٦)
سلحفاة شركة النور (العدد ٦)

ولعل من المسلم به ان شاعرنا هو الذي اختار النماذج الشعرية الواردة في كتاب « نفثات اليراع » ، وصاحب التعليق عليها .

ومن هذا يقول الاستاذ حسن نجيله في دراسته « التجاني كما عرفته » :

(عمل التجاني فترة مع استاذنا وشيخنا الجليل محمد عبد الرحيم عندما انشأ مجلة ام درمان . وعندما انتوى السيد الشيخ محمد عبد الرحيم اصدار كتابه نفثات اليراع وكل للتجاني جمع وترتيب الجانب الذي خصصه في الكتاب لتسجيل نماذج من الشعر السوداني المعاصر والسابق وكتب التجاني الي في هذا المعنى عندما كنت اعمل في شندي وطلب مني شيئا من شعري لهذا الغرض فرددت عليه معتذرا ، بل رجوته ألا يتصدى لطبع اشعار الشباب لانها لم تنضج بعد وليست في المستوى الذي يستحق التسجيل ، فكتب الي مرة اخرى يلح في موافاته بشيء من شعري واكد لي انه ماض في جمع المختارات وتقديمها للطبع .. ومضى في تحقيق

PJ
7864
I33Z8